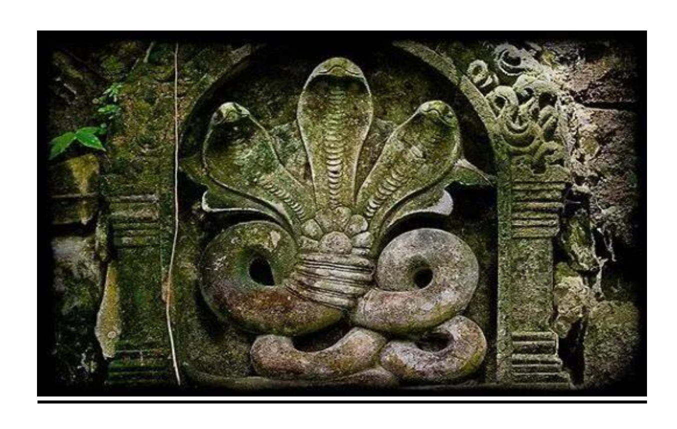
# عبادة الثعابين

## تأليف: شخص مجهول

**اعداد وترتيب: The Master Library**








**شعار المكتبة التي قامت بتنقيح الكتاب وترتيبه**



**تاريخ نشر الكتاب بالعربية: 2025/ تاريخ نشر الكتاب الأصلي: 1899**

**للتواصل مع القائم على المكتبة: zaidadwan@gmail.com**

الفهرس:

## الفصل الأول: أوفيولاتيريا (عبادة الثعابين)، موضوعٌ استثنائي ذو أصلٍ غامض وانتشارٍ عالمي

تُعدّ عبادة الأفعى، إلى جانب عبادة القضيب، من أبرز أشكال الدين التي عرفها العالم، والتي تبدو للوهلة الأولى غامضة. وإلى أن يُكتشف مصدرها الحقيقي ويُفهم، ستبقى طبيعتها غامضة كعالميتها، إذ إن ما قد يراه الإنسان في كائنٍ منفرٍ ومُنفرٍ في عاداته كهذا الزاحف، ليُعبده، يُعدّ من أصعب المشاكل التي يصعب إيجاد حل لها. ومع ذلك، نادرًا ما نجد بلدًا في العالم القديم لا يُمكن تتبعه، إذ ينتشر في كل نظام أساطير معروف، ويترك أدلةً على وجوده وامتداده في شكل آثار ومعابد وأعمال ترابية غاية في التعقيد والغرابة. بابل، وبلاد فارس، وهندوستان، وسيلان، والصين، واليابان، وبورما، وجاوة، وشبه الجزيرة العربية، وسوريا، وآسيا الصغرى، ومصر، وإثيوبيا، واليونان، وإيطاليا، وشمال وغرب أوروبا، والمكسيك، وبيرو، وأمريكا - جميعها تُقدم أدلةً وافرة على نفس التأثير، وتشير إلى الأصل المشترك للأنظمة الوثنية أينما وُجدت.

سواء كانت العبادة نابعة من الخوف أم الاحترام، فهذا سؤالٌ يُطرح بطبيعة الحال، وفي سعينا للإجابة عليه، سنواجه حقيقة أنه في بعض الأماكن، كمصر، كان الرمز هو شيطان خير، بينما في الهند، والدول الاسكندنافية، والمكسيك، كان رمزًا لشيطان شرير. لُوحظ أنه في المناطق الأكثر دفئًا من العالم، حيث يُعد هذا المخلوق ألد عدو يمكن للإنسان مواجهته، لا يُستغرب اعتبار الثعبان مرافقًا أسطوريًا لكائن شرير، ولكن في المناطق المتجمدة أو المعتدلة من الأرض، حيث يتضاءل إلى مجرد زاحف لا يملك القدرة على إثارة الفزع، يُنظر إليه بنفس الطابع المروع، وهي حقيقة لا يمكن تفسيرها بالأسباب الطبيعية. إن اتساق التقاليد وحده كفيل بتفسير اتساق الخرافات، حيث تكون الظروف المحلية متضاربة للغاية. الثعبان هو الرمز الأكثر شيوعًا في أساطير العالم. قد يُدرج في بلدان مختلفة بين أتباع الشيطان أكثر الحيوانات سمية أو فظاعة، لكنه يحافظ على ثباته، باعتباره الهدف الوحيد الثابت للرعب الخرافي في جميع أنحاء العالم المأهول. يقول ستيلينجفليت: "حيثما ساد الشيطان، كان الثعبان يُقدس تبجيلًا خاصًا". يُقترح الآن إظهار عالمية هذه الخرافة الفريدة وغير العقلانية، وإن كانت طبيعية. غير عقلانية، لأنه لا يوجد شيء مشترك بين الإله والزاحف، يوحي بفكرة عبادة الثعبان؛ وطبيعية، لأنه، مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أحداث الجنة، فإن كل الاحتمالات تصب في صالح ظهور مثل هذه الخرافة". (دين) قد يبدو غريبًا أن تُدخل عبادة الثعبان إلى العالم، ولا بد أن يبدو أكثر غرابة أنها سادت عالميًا تقريبًا. وبما أن البشرية قد هلكت بفعل هذا الكائن، فلم نكن نتوقع أن يُعتمد، من بين جميع الأشياء الأخرى، كأقدس رمز وأجلّها، وأن يصبح هو الهدف الرئيسي للعبادة. ومع ذلك، نجده كذلك، ففي معظم الطقوس القديمة ثمة تلميحات إليه. في حفلات باخوس، كان المشاركون في الاحتفالات يحملون الثعابين في أيديهم، ويصرخون صرخاتٍ مروعة "إيفا، إيفا". وكثيرًا ما كانوا يُتوّجون بالثعابين مع استمرارهم في إطلاق نفس الهتاف المحموم. كان أحد أجزاء طقوس جوبيتر سابازيوس الغامضة هو إدخال ثعبان في صدر الشخص المراد تكريسه، والذي كان يُخرج من أسفل. ويُقال إن هذه الاحتفالات، وهذه العبادة الرمزية، بدأت بين المجوس، أبناء شوس، وانتشرت عن طريقهم في مناطق مختلفة. يعتقد إبيفانيوس أن دعاء "إيفا، إيفا" مرتبط بأم البشرية العظيمة، التي خدعتها الحية، ويتفق معه كليمنس الإسكندري في الرأي. بينما يرى آخرون أن إيفا هي نفسها إيف، إيفا، أوفا، التي ترجمها

اليونانيون إلى أوفيس، والتي كانت تدل على الحية. ويُقر كليمنس بأن مصطلح إيفا، عند استنشاقه بشكل صحيح، كان يحمل مثل هذه الدلالة. وكانت أوليمبياس، والدة الإسكندر، مولعة جدًا بهذه الحفلات الجنسية، التي كان يُقدم فيها الثعبان. يذكر بلوتارخ أن نساء إيدونيا كنّ يمارسن طقوسًا كهذه قرب جبل هيموس في تراقيا، واستمرت حتى بلغت حد الجنون. وقد حذت أوليمبياس حذوهن عن كثب في جميع مناوراتهن المحمومة. كانت تتبعها العديد من المرافقات، كل واحدة منهن تحمل ثيرسوسًا ملفوفًا حوله ثعابين. كما كانت ثعابين في شعرهن، وفي الأكاليل التي كن يرتدينها، فكان مظهرهن مخيفًا للغاية. كانت صرخاتهن أيضًا صادمة للغاية، وكان كل ذلك مصحوبًا بتكرار مستمر للكلمات التالية: إيفوي، سابو، هويس أتيس، أتيس هويس، وهي ألقاب الإله ديونوس.

كان اسمه الغريب هويس، وكان كهنته هما هيادس وهياوتس. وكان يُلقَّب أيضًا إيفاس.

في مصر، كان هناك ثعبان يُدعى ثيرموثيس، وكان يُنظر إليه على أنه مقدس للغاية؛ ويُقال إن السكان الأصليين استخدموه كتاج ملكي، زيَّنوا به تماثيل إيزيس. نعلم من ديودورس الصقلي أن ملوك مصر كانوا يرتدون قبعات عالية، تنتهي بكرة مستديرة، وكانت تُحيط بها أشكال أفعى. وبالمثل، كان الكهنة يرتدون على قبعاتهم صورًا لأفاعي. كان لدى القدماء فكرة مفادها أنه عندما التهم زحل أطفاله، خدعته زوجته أوبس باستبدال حجر كبير بأحد أبنائه، وكان الحجر يُسمى أبادير. لكن أوبس وأوبيس، المُمثلان هنا بصيغة أنثى، كانا إله الثعبان، وأبادير هو نفس الشخصية تحت مسمى مختلف. يبدو أن أبادير هو شكل من أشكال أوب-أدور، ويرمز إلى الإله الثعبان أوروس. أحد هذه الأحجار، الذي يُفترض أن زحل ابتلعه بدلًا من طفل، كان قائمًا، وفقًا لبوسانياس، في دلفي. كان يُقدّر بقداسة بالغة، وكان يُسكب عليه النبيذ يوميًا؛ وكان يُكرّم في الأعياد. ربما كان مغزى ما سبق هو هذا: كان من المعتاد لفترة طويلة تقديم الأطفال على مذبح زحل؛ ولكن مع مرور الوقت أزالوه، وأقاموا في غرفته عمودًا حجريًا، كانوا يُعلنون أمامه نذورهم، ويقدمون تضحيات من طبيعة مختلفة. سُمي هذا الحجر الذي استبدلوه أبادار، نسبةً إلى الإله الذي يُمثله. يشير مصطلح "أب" عمومًا إلى الأب، ولكنه في هذه الحالة يرتبط بالتأكيد بثعبان، والذي كان يُطلق عليه بشكل غير متفاوت: أب، أوب، أوب. يرى البعض أن أبادون، أو كما ورد في سفر الرؤيا، أبادون، هو اسم الإله الأوفي نفسه، الذي تأثر العالم بعبادته طويلًا. يُطلق عليه أبادون، ملاك الهاوية - أمير الظلام. وفي موضع آخر، يُوصف بأنه التنين، تلك الحية القديمة، التي هي الشيطان. ومن ثم، يُفترض أن العالم هاينسيوس مُحق في رأيه الذي أدلى به بشأن هذا المقطع، عندما جعل أبادون هو نفسه الحية بيثو.

يُقال إنه في طقوس زرادشت، وُصفت امتدادات السماوات العظيمة، وحتى الطبيعة نفسها، برمز الحية. (يوسابيوس) ذُكر مثل ذلك في أوكتاتوش لأوستانس؛ وعلاوة على ذلك، في بيريا وأجزاء أخرى من الشرق، شيّدوا معابد لقبيلة الثعبان، وأقاموا احتفالات تكريمًا لها، معتبرين إياها أسمى الآلهة، ورؤساء العالم أجمع. بدأت العبادة بين أهل الكلدانيين. بنوا مدينة أوبيس على نهر دجلة، وكانوا مولعين جدًا بالعرافة وعبادة الثعبان. من الكلدانيين انتقلت العبادة إلى مصر، حيث سُمي إله الثعبان كانوف، وكانيف، وكنيف. كان له أيضًا اسم أوب، أو أوب، وكان هو نفسه البازيليكوس، أو الثعبان الملكي؛ وهو نفسه أيضًا ثيرموثيس، واستُخدم على نحو مماثل لتزيين تماثيل آلهتهم. يُقال إن الإله الرئيسي في مصر كان فولكان، الذي لُقّب أيضًا بأوباس، كما علمنا من شيشرون. كان هو نفسه أوزوريس، الشمس؛ ولذلك كان يُطلق عليه

غالبًا اسم أوب-إيل، أو بيثو سول؛ وكانت هناك أعمدة مقدسة له، تحمل نقوشًا هيروغليفية غريبة، تحمل الاسم نفسه. كانت عالية جدًا وضيقة مقارنةً بطولها؛ ولذلك كان كل شيء يتناقص تدريجيًا إلى نقطة يُطلق عليه اسم أوبيلوس، أو أوبيليسكوس، بين الإغريق الذين نقلوا عن المصريين. كان أوفيل (أوف-إيل) اسمًا يحمل المعنى نفسه، ولذلك سُميت العديد من التلال المقدسة، أو تافا، نسبةً إلى إله الثعبان، الذي كانت تُقدس لديه. يذكر سانخونياثون تاريخًا كتبه ذات مرة عن عبادة الثعبان. كان عنوان هذا العمل، وفقًا ليوسابيوس، "إثوثيون" أو "إثوثيا". وقد كتب فيريكيدس تيروس أطروحة أخرى حول الموضوع نفسه، وربما كانت نسخة من الأولى؛ إذ يُقال إنه ألّفها من بعض الروايات السابقة عن الفينيقيين. كان عنوان كتابه "لاهوت أوفيون"، الملقب بـ"أوفيونيوس"، وكان عابدوه يُطلق عليهم "أفيونيدا". كان تحوت و"أثوث" بالتأكيد لقبين للإله في العالم الوثني؛ ومن المحتمل جدًا أن يكون كتاب سانخونياثون قد سُمي من هنا "إثوثيون"، أو بالأحرى "أثوثيون". ولكن، من الموضوع الذي كُتب عنه، وكذلك من أطروحة فِرْيكيدِس، لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن أثوثيون، أو إيثوثيون، كان خطأً في أث-أوفيون، وهو لقب يرتبط ارتباطًا مباشرًا بالعبادة التي تناولها الكاتب. كان أث لقبًا مقدسًا، كما أوضحنا، ونتصور أن هذه الأطروحة لم تقتصر على الإله الأفعى فحسب، بل تضمنت روايات عن مُريديه، الأوفيتيين، وعلى رأسهم أبناء خوس. بدأت عبادة الأفعى بينهم، ومن ثم سُمّواالإثيوبيون، والأيثوبيون، الذين يترجمهم الإغريق إلى أثيوبس. لم يشتق اسمهم من لون بشرتهم، كما يُعتقد أحيانًا، لأن فرعي فوت ولوهيم كانا على الأرجح من أصل أغمق؛ ولكن يُرجّح أنهم سُمّوا كذلك نسبةً إلى آث-أوب وآث-أوبيس، الإله الذي عبدوه. ويمكن الاستدلال على ذلك من بليني. يقول إن بلاد إثيوبيا (وبالتالي شعبها) سُمّيت إثيوب، نسبةً إلى شخصية كانت إلهًا - إثيوب فولكاني فيليو. جلب الإثيوبيون هذه الطقوس إلى اليونان، وأطلقوا على الجزيرة التي أقاموا فيها أول مرة اسم إيلوبيا، سوليس سيربنتيس، أو إنسولا. وهو نفس اسم إيوبويا، وهو اسم ذو دلالة مماثلة، حيث كانت جزيرتها منطقة تُسمى إثيوبيا. أوبوا هي في الحقيقة أوب-آيا، وتعني جزيرة الثعبان. وقد سادت العبادة نفسها بين سكان هايبربوريان، كما يتضح من أسماء النساء المقدسات اللواتي كنّ يأتين سنويًا إلى ديلوس؛ وهنّ كاهنات للإلهة الطورية. كان هرقل يُعتبر الإله الرئيسي، مثل كرونوس، ويُقال إنه أنتج البيضة الدنيوية. وقد مُثّل في اللاهوت الأورفي برمز مختلط يجمع بين الأسد والثعبان، وأحيانًا الثعبان فقط. أما الكوثيون، تحت لقب هيليادا، فقد استقروا في رودس، لأنهم كانوا من الحويين أو الأوفيين، ولذلك سُميت الجزيرة بأوفيوسا. وكان هناك أيضًا تقليد يُشير إلى أنها كانت تعجّ بالثعابين في يوم من الأيام. (يقول بوخارت إن الجزيرة سُميت رودس من كلمة "راد"، وهي كلمة سريانية تعني الثعبان). ساد مفهوم مماثل في كل مكان تقريبًا استقروا فيه. أُطلق عليهم ألقاب أعم هي ليليجيس وبلاسجي؛ ولكن بشكل أدق، إيلوبيان، وأوروبيان، وأوروبيان، وأسوبيان، وإينوبيان، وأوفيونيان، وإثيوبيس، كما يتضح من الأسماء التي ورثوها؛ وفي معظم الأماكن التي أقاموا فيها، تناقلوا تقاليد تُشير إلى لقبهم الأصلي، أوفيونيون. في فريجيا، وعلى مضيق هيلسبونت، حيث أرسلوا مستعمرات في وقت مبكر جدًا، كان هناك شعب يُطلق عليه اسم أوفيوجينيس، أو سلالة الثعابين، الذين قيل إنهم احتفظوا بعلاقة قرابة وتوافق مع الثعابين؛ وسادت فكرة مفادها أن أحد الأبطال، الذي قادهم، قد تحول من ثعبان إلى رجل. في كولخيس كان هناك نهر أوفيس، وكان هناك نهر آخر يحمل الاسم نفسه في أركاديا. سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى جماعةٍ من الناس استقروا على ضفافها، وقيل إن ثعبانًا قادها. ويُقال إن هذه الزواحف نادرًا ما تُوجد في الجزر، ولكن يُفترض أن جزيرة تينوس، إحدى جزر سيكلاديز، كانت تعجّ بها ذات يوم.

)أريستوف.(

يذكر ثوسيديديس شعبًا من إيتوتيا يُدعى الأوفيونيين؛ ويبدو أن معبد أبولو في بيتارا، في ليقيا، قد بُني لأول مرة على يد كاهنة تحمل الاسم نفسه. سُميت جزيرة قبرص "أفيوسا" و"أفيودس"، نسبةً إلى الثعابين التي يُفترض أنها كانت تكثر فيها. لم يُذكر نوعها في أي مكان، باستثناء أنه قيل إنه كان هناك نوعٌ من الثعابين ذو قدمين في بافوس. ويُقصد بهذا العرق الأوفيتي، الذي قدم من مصر وسوريا، واستقر في هذه الجزيرة. واستقروا أيضًا في جزيرة كريت، حيث تزايد عددهم بشكل كبير؛ حتى أن مينوس أُطلق عليه اسمًا رمزيًا غير لائق، وهو "أوفيس أوريساي"، أي "سربنتيس"، أي "مينكسيس". كانت جزيرة سيريفوس صخرة ضخمة، أطلق عليها الرومان اسم "ساكسوم سكريفيوم"، وكانت تُستخدم كسجن كبير للمنفيين. ويُصوَّر أنها كانت تعج بالثعابين في الماضي، وقد أطلق عليها فيرجيل اسم "سربنتيفيرا"، كما صحح سكاليجر المقطع. ويُقال إن رأس ميدوسا أحضره بيرسيوس؛ ويُقصد بذلك إله الثعبان، الذي أدخلت عبادته هنا شعوب تُدعى "بيريسيان". كان رأس ميدوسا يرمز إلى الحكمة الإلهية، وكانت الجزيرة مقدسة للثعبان، كما يتضح من اسمها. كان الأثينيون يُقدِّرون كأفعى، وكان لديهم تقليدٌ بأن الحارس الرئيسي لأكروبوليسهم كان ثعبانًا.

يُروى عن الإلهة سيريس أنها وضعت تنينًا حارسًا لمعبدها في إليوسيس، وعيَّنت آخر لرعاية إريكثيوس. كان إيجيوس الأثيني، وفقًا لأندروتيون، من سلالة الثعابين،

6

ويُقال إن أول ملك للبلاد كان تنينًا.

ويُعتقد أن كيكروبس هو أول من حكم. ويُقال إنه كان ذا طبيعة مزدوجة، إذ كان جسده مزيجًا من جسد رجل وجسد ثعبان. يقول ديودورس إن هذا كان ظرفًا اعتبره الأثينيون غير قابل للتفسير؛ ومع ذلك، فإنه يجتهد في تفسيره من خلال تصوير كيكروبس على أنه نصف إنسان ونصف وحش، لأنه كان ينتمي إلى مجتمعين مختلفين. يحاول يوستاثيوس أيضًا حل هذه المشكلة على نفس المبادئ تقريبًا، وبنفس النجاح. وقد قال البعض عن كيكروبس إنه خضع لعملية تحول، إذ تحول من ثعبان إلى إنسان. ويقصد بذلك، وفقًا ليوستاثيوس، أن كيكروبس، بمجيئه إلى هيلاس، قد تخلص من كل فظاظة ووحشية بلاده، وأصبح أكثر تحضرًا وإنسانية.

يُصرّح البعض بأن هذا إطراء مبالغ فيه لا يُقدَّم لليونان في بداياتها، ويُنتقص كثيرًا من شخصية المصريين. لذلك، يُعلّق مارشام المُعلِّم بإنصافٍ كبير: "من الأرجح أنه أدخل إلى اليونان حضارة بلده، أكثر من كونه مدينًا لها بأي شيء من هناك". فيما يتعلق بالطابع المُختلط لهذه الشخصية، يُمكننا تفسيره بسهولة. كان "سيكروبس" بالتأكيد لقبًا للإله، الذي كان يُعبَد تحت هذا الرمز. وقد ذُكِرَ شيءٌ من هذا القبيل عن تريبتوليموس وإريكثونيوس، وقيل الشيء نفسه عن هرقل. كان سكان طيبة في بيوتيا، مثل الأثينيين، يُعَدّون أنفسهم من سلالة الثعابين. وبالمثل، أشار اللاسيديمونيون إلى أنفسهم بالأصل نفسه. ويُقال إن مدينتهم كانت تعجّ بالثعابين منذ القدم. يُقال الشيء نفسه عن مدينة أميبلا في إيطاليا، ذات الأصل الإسبرطي. فقد هاجروا إليها بأعداد كبيرة حتى هجرها سكانها. وظلت أرغوس تعاني من نفس المشكلة حتى جاء أبيس من مصر واستقر فيها. كان نبيًا، ويُعتقد أنه ابن أبولو، وشخصًا ذا مهارة وفطنة كبيرين، وقد نسبوا إليه نعمة تحرير

بلادهم من هذا الشر. وهكذا، نسب الأرجيون إلى هذه الشخصية الخيالية الفضل في تطهير أرضهم من هذه المظالم، لكن ذريتهم جاءت من نفس المكان الذي يُفترض أن أبيس قد وصل منه. كانوا بالتأكيد حويين من مصر، وتُروى القصة نفسها عن تلك البلاد. يُصوَّر أنها كانت في الماضي مكتظة بالثعابين، وكادت أن تُخلى من سكانها بسبب أعدادهم. يبدو أن ديودوروس الصقلي يفهم هذا حرفيًا، لكن منطقةً تُغمر سنويًا، ولفترةٍ طويلة، لا يُمكن أن تكون عُرضةً لمثل هذه الكارثة. كانت هذه الأفاعي من طبيعةٍ أخرى، وقد أُوبِئَت بها، ويروي التاريخُ قصة الكوثيين، وهم أوفيتاي الأصليون، الذين سيطروا على تلك البلاد لفترةٍ طويلة. وقد انتقلت هذه الأفاعي من مصر إلى سوريا، وإلى نهر الفرات، ويُذكر نوعٌ مُعينٌ من الأفاعي على ذلك النهر، والتي كانت غير ضارةٍ للسكان الأصليين، لكنها قاتلةٌ لأي شخصٍ آخر.

لا يُمكن فهم هذا حرفيًا؛ فمهما كانت حكمة الأفعى، لا يُمكن أن يكون التمييز بينها كافيًا. كانت هذه الأفاعي من نفس طبيعة طيور ديوميديس، والكلاب في معبد فولكان؛ وتروي التواريخ قصصًا عن كهنة أوفيت، الذين اعتادوا إنقاذ شعوبهم والتضحية بالغرباء، وهي عادة سادت في وقت ما في معظم أنحاء العالم. ويُقال إن كهنة كوثيت كانوا متعلمين للغاية؛ ولأنهم كانوا أوفيتيين، قيل إن كل من استفاد من معلوماتهم كان يتلقى تعليمه من الثعابين. ولأن عبادة الثعبان كانت شائعة قديمًا، فقد سُميت العديد من الأماكن، وكذلك الناس، بأسمائهم. أُطلق على أولئك الذين استقروا في كامبانيا اسم أوبيسي، والذي ربما غيّره البعض إلى أوفيسي، لأنهم كانوا يُطلق عليهم اسم الثعابين. وهما في الواقع اسمان لهما نفس المعنى، ويدلان على أصل الشعب.

نجد أماكن تُدعى أوبيس، وأوفيس، وأوفيتيا، وأوفيونيا، وأوفيويسا، وأوفيودس، وأوفيوسا. كان هذا الاسم الأخير اسمًا قديمًا، وفقًا لستيفانوس، لتُميّز به جزر رودس، وسينثوس، وبسبيكوس، وتينوس، وقارة أفريقيا بأكملها. وكانت هناك أيضًا مدن تُسمى بهذا الاسم. أضف إلى هذه الأماكن أسماء مثل أوبوت، وأوبونا، وعكسها أونوبا، المشتقة من أوب، والتي كانت تحمل نفس المعنى.

يقول كليمنس الإسكندري إن مصطلح "إيفا" يدل على ثعبان إذا نُطق بحرف الراء المناسب، ويقول إبيفانيوس الشيء نفسه.

نجد أن هناك أماكن تحمل هذا الاسم. كانت هناك مدينة "إيفا" في أركاديا، وأخرى في مقدونيا. وكان هناك أيضًا جبل "إيفا"، أو "إيفان"، الذي لاحظه بوسانياس، والذي تقع بينه وبين إيثومي مدينة "ميسيني". كما يذكر أيضًا "إيفا" في أرجوليس، ويتحدث عنها كمدينة كبيرة. اسم آخر للثعبان، لم نلاحظه بعد، هو باتان، أو بيتان. سُميت أماكن عديدة في أنحاء مختلفة بهذا المصطلح. من بينها مدينة في لاكونيا، وأخرى في ميسيا، يُطلق عليها ستيفانوس اسم مدينة أوليا. لا شك أنها سُميت بهذا الاسم نسبةً إلى عبادة الثعبان، بيتان، وربما كان لديها تماثيل ورموز مرتبطة بالدين السائد. يذكر أوفيد المدينة الأخيرة، ويلمح إلى تاريخها القديم عندما يصف ميديا بأنها تطير في الهواء من أثينا إلى كولشيس. كانت المدينة تقع على أنقاض إيفا، أو إيفان، التي ترجمها الإغريق إلى إيفينوس. ووفقًا لسترابو، فهي مُركّبة من إيفا-إين، ينبوع أو نهر إيفا الثعبان.

ومن اللافت للنظر أن الأوبيكيين، الذين يُقال إنهم سُمّوا نسبةً إلى الثعابين، كان لديهم أيضًا اسم بيتاناتا؛ على الأقل، كان جزء من تلك العائلة يُدعى بهذا الاسم. بيتاناتي هو مصطلح يحمل نفس معنى أوبيتشي، ويشير إلى أتباع بيتان، الإله الثعباني، الذي كان يعبده ذلك الشعب.

كان يُطلق على لاوس قديمًا اسم بيتاناتيس، كما علمنا من هيسيخيوس، ويُمكن معرفة سبب ذلك من كونه إسبرطيًا، مما يُشير إلى أنه أحد السربنتيجينا، أو الأوفيين. ولذلك، كان يُمثل بثعبان كرمز على درعه. ويُقال إن لواءً، أو جزءًا من المشاة، كان موجودًا لدى بعض اليونانيين يُطلق عليه اسم بيتاناتيس، ولا بد أن الجنود الذين نتجوا عن ذلك قد أُطلق عليهم اسم بيتاناتيس، بلا شك، لأن رايتهم كانت البيتان، أو الثعبان. وعلى غرار ذلك، كان هناك بين الأمم الأخرى جنود يُطلق عليهم اسم دراكوناري. وفي معظم البلدان، كانت الراية العسكرية رمزًا للإله الذي يُعبد هناك. لقد ألقى ما قيل بالفعل بعض الضوء على تاريخ هذه الوثنية البدائية، وقد أظهرنا أنه أينما استقرت أي من هذه المستعمرات الأوفيتية، فقد تركت وراءها من طقوسها ومؤسساتها، وكذلك من الأسماء التي ورثتها للأماكن، العديد من النصب التذكارية، والتي يمكن من خلالها تتبعها بوضوح.

## الفصل الثاني. الأصل القضيبي المفترض لعبادة الثعبان - فكرة الحياة

يميل بعض الأشخاص إلى أن ينسبوا إلى الثعبان، باعتباره رمزًا دينيًا، أصلًا ذكريًا بشكل واضح. يتخذ السيد سي. إس. ويك وجهة نظر معاكسة، ويقول: "على حد علمي، لا يحمل رمز الثعبان إشارةً قضيبيةً مباشرة، كما أن صفته المتمثلة في الحكمة ليست هي الأهم. كانت الفكرة الأكثر ارتباطًا بهذا الحيوان هي فكرة الحياة، ليست مجرد وجود، بل استمرارية، وربما أبدية. وهكذا، صوّر الثعبان باي حارسًا على أبواب المقابر المصرية التي تُمثل قصور السماء. ويبدو أن ثعبانًا مقدسًا كان يُحفظ في جميع المعابد المصرية، ويُقال لنا إن العديد من التماثيل، وخاصةً في مقابر ملوك طيبة، تُظهر الأهمية التي كان يُعتقد أنها ستتمتع بها في المستقبل. كانت التيجان، المصنوعة من الأفعى أو ثيرموثيس المقدسة، تُمنح للملوك والآلهة، وخاصةً لإيزيس، ولا شك أن هذه التيجان كانت ترمز إلى الحياة الأبدية. كانت إيزيس إلهة الحياة والشفاء، ومن الواضح أن الثعبان كان ملكًا لها في... تلك الشخصية، إذ كانت رمزًا أيضًا لآلهة أخرى تحمل نفس الصفات. وهكذا، تُحيط على البرديات بصورة حربوقراط، الذي عُرف بإسكليبيوس؛ بينما لم يقتصر الأمر على بقاء ثعبان كبير حيًا في معبد سيرابيس العظيم، بل رُسم هذا الإله على آثار لاحقة بثعبان كبير برأس بشري أو بدونه. يعتقد السيد فيرجسون، وفقًا لنظريته الخاصة حول أصل عبادة الثعبان، أن هذه الخرافة ميّزت إمبراطورية كلدان الطورانية القديمة (أو لنقل الأكادية)، بينما كانت عبادة الأشجار سمة مميزة للإمبراطورية الآشورية اللاحقة. لا شك أن هذا الرأي صحيح، ويعني حقًا أن الجنس البشري القديم كان لديه ذلك الشكل من الإيمان الذي ارتبط به الثعبان دائمًا بشكل غير مباشر - عبادة مبدأ التكاثر الذكوري، والذي كانت مرحلته الرئيسية على الأرجح هي السلف. عبادة، بينما كان الجنس الأخير يعبد العنصر الأنثوي، الذي ترمز إليه الشجرة المقدسة، "البستان" الآشوري. مع ذلك، لا شك أن "شجرة الحياة" كانت تشير إلى العنصر الذكوري، ويمكننا أن نتخيل أن الفاكهة وحدها كانت تُعامل في الأصل كرمز للعنصر المعاكس.

يشير السيد ج. هـ. ريفيت-كارناك، في بحثه المنشور في مجلة الجمعية الآسيوية في البنغال، بعنوان "رمز الأفعى في الهند"، إلى أن الأفعى رمز للقضيب. يقول: "يظهر الثعبان على كروملیشات ومنهيرات ما قبل التاريخ في أوروبا، والتي أعتقد أنها قد تحتوي على آثار عبادة القضيب. وقد انصبّ اهتمامي الضئيل على رمز الثعبان بشكل رئيسي على ارتباطه بعبادة ماهاديو أو سيفا، وذلك بهدف التأكد مما إذا كانت عبادة الثعبان وعبادة ماهاديو أو القضيب متطابقة، وما إذا كان وجود الثعبان على بقايا ما قبل التاريخ في أوروبا يدعم نظريتي القائلة بأن العلامات الموجودة على كروملیشات ومنهيرات هي بالفعل آثار لهذا الشكل من العبادة، الذي نقلته إلى أوروبا من الشرق القبائل التي دُفنت بقاياها تحت التلال. وخلال زياراتي إلى بنارس، المركز الرئيسي لعبادة سيفا في الهند، بحثتُ بعناية عن رمز الثعبان. وعلى أكثر الطبقات شيوعًا، بالنسبة لتمثال "ماهاديو"، وهو حجر خشن يُوضع على طرفه ويُفترض أنه يُمثل القضيب، لا يُرى الثعبان عادةً. ولكن في المعابد وفي أرقى الأضرحة المنتشرة في المدينة والأحياء، يُوجد الثعبان عادةً مُحيطًا بالقضيب. أحيانًا يُحمل ذيل الثعبان إلى أسفل اليوني، وفي إحدى الحالات وجدتُ ثعبانين على ضريح مُصوّر بهذا الشكل.

في سوق بيناريس، صادفتُ ذات مرة كوبرا معدنية رائعة، رأسها منتصب وغطاء رأسها مُمتد، مُصممة بحيث تُوضع حول أو فوق حجر أو معدن "ماهاديو". وهي الآن في إنجلترا. يُشير وضع الكوبرا عند الإثارة وتمدد الرأس إلى سبب تمثيل هذه الثعبان لماهاديو والقضيب.

11

على الرغم من أن وجود الثعبان في هذه النماذج لا يُثبت الكثير، وعلى الرغم من سهولة تكيف شكله، لا بد أن الثعبان كان دائمًا... موضوعٌ مُفضّل في الزخرفة، ومع ذلك، سيُلاحظ أن الثعبان بارزٌ في الشكل التقليدي الذي يُعبَد به ماهاديو في بيناريس وأماكن أخرى، وأنه أحيانًا يحل محل اللينجا، وأنه يُوجد مُتشابكًا مع كل أداةٍ تقريبًا مُرتبطة بهذه العبادة.

وفيما يلي، يقول الكاتب نفسه: "يُعدّ يوم ناغ بانشامي، أو اليوم الخامس من القمر في ساوان، احتفالًا كبيرًا في مدينة ناغبور، ويُمارس فيه الكثير من التهويل في ذلك اليوم. تُباع وتُوزّع صورٌ خشنةٌ للثعابين بجميع الأشكال والأوضاع، على غرار ما يُشاع عن عيد الحب. لا أستطيع العثور على أي نسخٍ من هذه الرسومات الغريبة، ولو استطعتُ لما كانت صالحةً لإعادة إنتاجها. كان السيد ج. و. نيل، المفوض الحالي لناغبور، كريمًا بما يكفي لإرسال بعضٍ من رسومات عيد الحب الرائعة إليّ.

رسامو هذه الفئة، وأُقدّمها الآن للجمعية لفحصها. سيُلاحظ أنه في هذه اللوحات، التي لا يخلو بعضها من جدارة سواءً من حيث التصميم أو التنفيذ، لا تُقدّم أي شخصيات بشرية. في اللوحات التي رأيتها في الماضي، كانت أوضاع النساء مع الثعابين من أبشع الأوصاف، ولم تدع مجالاً للشك في أن الكوبرا، فيما يتعلق بالفكرة المُمثّلة في هذه الرسومات، كانت تُعتبر القضيب. في الصور المُرسلة الآن، ستُرى الثعابين مُمثّلة في جلسة الجماع بالشكل المعروف لعصا كاديوس إسكلابيان. ثم تُعيدني الأفعى متعددة الرؤوس، وهي تشرب من الكأس المرصعة بالجواهر، إلى بعض رموز أسرار الأيام الخوالي. الثعبان الملتف حول الشجرة والثعبان الثاني الذي يقترب منها يُوحيان بالإغراء والسقوط. لكنني لستُ غافلاً عن المآزق التي عانى منها ويلفورد، وأرى جازما أنه ليس من المستحيل اعتبار هذه الصورة غير هندوسية بحتة في معالجتها. ومع ذلك، فإن الشجرة والثعبان موجودان على النماذج النحاسية المرفقة بهذه الورقة، والتي سبق أن أوضحتُ أنها تُباع في سوق النحاس في بنارس اليوم - على بُعد مئات الأميال من ناجبور حيث رُسمت بطاقات عيد الحب هذه. في بحثي حول علامات صخور كوماون، بالإضافة إلى الإشارة إلى التشابه بين علامات الكأس في الهند وأوروبا، طرحتُ نظرية مفادها أن الدوائر متحدة المركز وبعض العلامات الغريبة لما أسماه البعض "قيثارة اليهود"، الشائعة في أوروبا، هي آثار لعبادة القضيب التي حملتها هناك قبائل انحدرت قبائلها إلى الهند، وزحفت إلى أقصى بقاع أوروبا، وكما تشير آثارها، وجدت طريقها إلى القارة الأمريكية أيضًا. يبقى التساؤل عما إذا كانت هذه العلامات تهدف حقًا إلى تمثيل القضيب واليوني مسألة رأي شخصي. ولكن ليس لديّ ما يدعوني إلى الاستياء من الاستقبال الذي لاقته هذه النظرية، التي بدت للكثيرين مُرضية إلى حد ما، في بعض جمعيات الآثار الأوروبية. لا أحد يقارن حجر يونس بنارس، المُرسَل مع هذا، بالنقوش على الصفحة الأولى من العمل المتعلق بعلامات صخور نورثمبرلاند وأرجيلشاير، الذي نشره دوق نورثمبرلاند بشكل خاص، ينكر وجود تشابه استثنائي بين الرمز التقليدي لعبادة شيفا اليوم والعلامات القديمة على الصخور، والمينهير، والكرومليخ في نورثمبرلاند، واسكتلندا،

وبريتاني، والدول الاسكندنافية، وأجزاء أخرى من أوروبا. وسيشير مزيد من الفحص لأشكال الكروملكيات والمدافن والمنهيرات إلى أن المدافن نفسها كانت تهدف إلى الإشارة إلى رموز الماهديو واليوني، التي لم تُصوَّر بمعنى فاحش، بل لتمثيل التجدد، الحياة الجديدة، "الحياة من الموت، الحياة الأبدية"، التي كان من المتوقع أن يتمتع بها المدفونون في المدافن، مواجهين الشمس في خط زوالها، في الآخرة. وقد كتب إليّ البروفيسور ستيفنز، عالم الآثار الإسكندنافي الشهير، مؤخرًا، متحدثًا عن الرموز كما يلي: "كانت الأوراق التي تفضلتم بإرسالها إليّ قيّمة للغاية ومرحب بها. لا شك أن الهند هي وجهتنا للبحث عن حلول للعديد من أسئلتنا الأثرية الصعبة". لكن ما يثير الاهتمام بشكل خاص هو بحثك عن المنحوتات الصخرية القديمة. أعتقد أنك محق تمامًا في آرائك. بل سأذهب إلى أبعد من ذلك. أعتقد أن أحجار البصلة الشمالية تُفسر بنفس التركيبة. لذلك أرسل إليك المجلة الأثرية السويدية لعام ١٨٧٦، التي تتضمن أطروحة البارون هرقل الممتازة حول هذه الأشياء... يمكنك الاطلاع على العديد من النقوش الخشبية الممتازة. أعتبر هذه الأشياء اختصارات تقليدية متأخرة للينغا واليوني، حياة من الموت، حياة أبدية - وبالتالي زينة مناسبة لقبور الموتى. يقول المؤلف أيضًا: "كثير ممن ينكرون بسخط فكرة شيوع عبادة القضيب بين أسلافنا القدماء يعتقدون أن هذه الرموز تُمثل الأفعى أو الشمس. ولكن، مع التسليم بذلك، ألا يُمكن أن تكون الأفعى، في النهاية، مجرد رمز للقضيب؟ وأعتقد أن الشمس، قوة الطبيعة المُنعشة، لطالما اعتُبِرت، على حد اعتقادي، تُمثل نفس الفكرة، ليس بالضرورة فكرةً بذيئة، بل سر الطبيعة العظيم، الحياة المُنتقلة من جيل إلى جيل، أو كما يقول البروفيسور ستيفانز، "الحياة من الموت، الحياة الأبدية". وهي الفكرة نفسها، في الواقع، التي، بغض النظر عن أي تصور بذيء، تُؤدي إلى عبادة ماهاديو ويوني يوميًا من قِبل مئات الآلاف من الهندوس. يقول براون في كتابه "أسطورة ديونيسوس الكبرى": "للثعبان ست نقاط اتصال رئيسية بديونيسوس: 1- كرمز للحكمة ومرتبط بها. 2- كرمز للشمس. 3- كرمز للزمن والخلود. 4- كرمز للأرض والحياة. 5- كمرتبط بالرطوبة المُخصبة. 6- كرمز لقضيب ذكري".

وفي إشارة إلى آخر هذه النقاط، يُتابع: "الثعبان مرتبط بديونيسوس بما أن الأرض والحياة والخصوبة، المرتبطة بالشمس، لا بد أن تكون رمزًا ذكريًا، وبالتالي ملائمًا لعبادة ديونيسوس بريابوس. يلاحظ السيد كوكس، بعد استعراض الموضوع، "وأخيرًا، أوحى رمز القضيب بشكل الثعبان، الذي أصبح رمزًا للحياة والشفاء. وهنا نجد مفتاح عبادة الشجرة والثعبان التي أثارت تكهنات بارعة كثيرة."

أظن أن أسطورة الثعبان والشجرة لم تُستنفد بأي تفسير ذكري بحت، ولكن العنصر الذكري هو بالتأكيد أحد أبرز سماتها، كما قد يُظن من أي فحص للمنحوتات المرتبطة بقمتي سانشي وأمرافاتي. من الصعب تصديق، مع السيد فيرجسون، أن فائدة الأشجار وجمالها أكسبها مكافأة التكريم الإلهي. مرة أخرى، كانت عشيرة أو عبادة البستان (خروج ٣٤، ١٣؛ الملوك الأول ١٧، ١٦؛ إرميا ١٧، ٢؛ ميخا ٥، ١٤) في جوهرها عبادة للقضيب، حيث كانت عشيرة هي المستقيمة. ويبدو أيضًا أنها كانت مرتبطة إلى حد ما بتلك الآثار المقدسة الشهيرة، الحية النحاسية لنحشتان (الملوك الثاني ١٨، ٤). يرى دونالدسون أن الحية هي رمز الرغبة. كما قيل إن هذا المخلوق يرمز إلى الإحساس بشكل عام.

يقول السير ج. و. كوكس، الذي أشار إليه آنفًا، في كتابه "أساطير أمم أرغاي": "إذا كانت هناك نقطة أكثر تأكيدًا من أخرى، فهي أنه أينما وُجدت عبادة الشجرة والثعبان، وُجدت أيضًا عبادة القضيب والسفينة،

واللينجا واليوني، فيما يتعلق بعبادة الشمس. من المستحيل دحض هذه الحقيقة، ولا يمكن قبول أي تفسير لجزء من العبادة يفشل في تفسير الآخر. لذلك، من غير الضروري تحليل النظريات التي تدّعي أنها ترى فيها عبادة الوحش الزاحف أو الشجرة المترامية الأطراف. لا بد أن الدين القائم على عبادة الزواحف السامة كان دين رعب؛ ففي أقدم لمحاتنا عنه، يُمثل الثعبان رمزًا للحياة والحب. كما أن عبادة القضيب ليست بأي حال من الأحوال عبادة للشجرة الناضجة المتفرعة. في أقدم أشكالها، يكون الرمز في كل مكان مجرد stauros، أو عمود؛ ومع أن هذا الساق أو العصا قد أزهر على شكل thyrsus وعصا الراعي، إلا أن العبادة، حتى في أحدث تطوراتها، تقتصر على الشجيرات الصغيرة والشجيرات والنباتات الدقيقة من نوع معين. ولا يُمكن مُجددًا مُجادلة حقيقة أن كل أمة، في مرحلة أو أخرى من تاريخها، قد ربطت بهذه العبادة المعنى الذي يربطه البراهمان الآن باللينغا واليوني. إن تشبث اليهود بها بهذا المعنى الخاص بإصرار شديد هو مصدر استياء مُرير للأنبياء؛ وقد بقيت الحية المصلوبة، المُعبَّدة لقدراتها الشافية، سليمة في الهيكل حتى أزالها حزقيا ودمرها. ولعل هذه العبادة للأفاعي، "الخالية من العقل"، المُدانَة في حكمة سليمان، قد نجت حتى من الأسر البابلي. ومن المؤكد أن المسيحيين الذين عُرفوا بالأوفيين والغنوصيين والنيقولاويين تبنّوها. وفي الأساطير الأثينية، تُعتبر الحية والشجرة بارزتين بشكلٍ خاص. كيكروبس، وإريختيوس، وإريخثونيوس، كلٌّ منهم على هيئة أفعى في الجزء السفلي من أجسادهم. كانت أفعى أثينا المقدسة تسكن الأكروبوليس، وقد ضمنت لها أشجار زيتونها النصر في تنافسها مع بوسيدون. كانت الأفعى المُعِدّة للصحة ترقد عند قدمي أسكليبيوس، وكانت الأفاعي تُغذى في معبده في إبيداوروس وأماكن أخرى. من الواضح تمامًا أن أفكار الرعب والموت التي تُوحي بها الزواحف السامة أو الساحقة لم تكن لتتلاشى تمامًا أمام أفكار الحياة والشفاء والسلامة؛ وهذه الأفكار الأخيرة وحدها هي التي ترتبط بالأفعى كموضع للعبادة. لطالما كان الوحش القاتل، ولا يزال، موضع رعب واشمئزاز، وهو ما يُعبَّر عنه في آهي، الأفعى الخانقة التي تخنق، وفيترا التي يضربها إندرا برمحه الذي لا يخطئ، وأزيداهاكا المرعب في الأفستا، وزوهاك أو العضاضة في الأساطير الفارسية الحديثة، والأفاعي التي يخنقها هراكلت في مهده، والبيثون، أو فافنير، أو جريندل، أو أبو الهول الذي يضربه ويذبحه فويبوس، أو سيجورد، أو بيوولف، أو أويديبوس. يتضح جليًا من جميع الآثار القضيبية في الشرق والغرب أن عبادة الأفعى لا علاقة لها بهذه الوحوش الشريرة. ففي قمم سانشي وأمرافاتي، تسود الأقراص التي تمثل اليوني في كل جزء من التصميم؛ يرتدي كل شكل أنثوي هذا الشعار بتميز لا لبس فيه، محفورًا داخل هذه الأقراص، بينما تظهر فوق هذا الجمع، على العديد من الأقراص، مجموعة من النساء يضعن أيديهن على اللينجا التي يحملنها. قد يكون من الممكن بالفعل تتبع الارتباط الذي يربط اللينجا بالثور في سيفيسون، باعتباره دلالةً على القوة الذكورية بشكل خاص، بينما يوجد الثعبان في الجاينية والفيشنافية مع الرمز الأنثوي، اليوني. لذا، في مصر، قد يرى البعض في الثور أبيس أو منيفيس هيمنة فكرة الذكورة في ذلك البلد، بينما في آشور أو فلسطين، يرتبط الثعبان أو أغاثوس دايمون بمذبح البعل.

## الفصل الثالث. أساطير القدماء - خصائص الآلهة الوثنية

يقول أحد المؤلفين المتعلمين: "بمقارنة جميع الأساطير المتنوعة للشرق والغرب معًا، نحصل على الخطوط العريضة التالية لأساطير القدماء: إنها تعترف، كعناصر أساسية للأشياء، بمبدأين مستقلين لطبيعة الذكر والأنثى؛ وهذان، في اتحاد باطني، كروح وجسد، يشكلان الإله الخنثى الأعظم، الواحد، الكون نفسه، الذي لا يزال يتألف من عنصرين منفصلين من تكوينه، معدلين وإن اتحدا في فرد واحد، تُعتبر كل الأشياء منه أجزاءً فقط... إذا بحثنا في آلهة الأمم القديمة، فسنجد أن كلًا منها، على الرغم من تنوع الأسماء، اعترف بنفس الآلهة ونفس نظام اللاهوت؛ ومهما بدت أي من الآلهة متواضعة، فإن كل من له أي ادعاء بالقدم سيُكتشف في النهاية، إن لم يكن على الفور، أنه قابل للحل في أحد المبادئ البدائية، الإله العظيم وإلهة الأمم." (شذرات كوري القديمة، المقدمة 34)

يقول السير ويليام جونز: "لا ينبغي أن نندهش عندما نجد، بعد فحص دقيق، أن شخصيات جميع الآلهة الوثنية، ذكورًا وإناثًا، تذوب في بعضها البعض، وفي النهاية في واحد أو اثنين، إذ يبدو أن هناك رأيًا راسخًا بأن كل الآلهة والإلهات في روما القديمة وفارانيس الحديثة لا تعني سوى قوى الطبيعة، وخاصة قوى الشمس، المعبر عنها بطرق متنوعة وبأسماء خيالية متعددة".

لقد تم الاعتراف بوضوح بمبدأ المبادئ المتبادلة للطبيعة، الذي يُشار إليه بالفاعل والمفعول، ذكرًا وأنثى، وغالبًا ما يُرمز إليه بالشمس والقمر، أو الشمس والأرض، في الأنظمة الأسطورية الأمريكية. وسيكون من الجيد ملاحظة الأساس المنطقي لهذا المبدأ، وبعض الأشكال الأكثر وضوحًا التي اتخذها، في تطور الأفكار البشرية؛ إذ يُمكن الادعاء بأمان أنها، في بعض جوانبها أو تعديلاتها، قد دخلت في كل نظام ديني، إن لم تكن في الواقع نواة كل أسطورة.

لا شك أن فكرة الخلق، التي يُوحي بها وجود الأشياء، كانت النتيجة الأولى للتفكير البشري. ولا شك أن طريقة حدوثها، وطريقة حدوثها، كانت هي البحث الذي شغل العقل بعد ذلك، واستنتج الإنسان من عمليات الطبيعة من حوله نظريته الأولى في الخلق. من البيضة، بعد الحضانة، رأى الطائر الحي يخرج، وهي ظاهرة لم تكن، في نظره البسيط، سوى خلق فعلي. فكيف إذن، وبشكل طبيعي، وكيف تقريبًا بالضرورة، ارتبطت هذه الظاهرة، وهي من أوضح الظواهر في الطبيعة، بأفكاره عن الخلق - خلق لم يستطع إلا إدراكه، ولكنه لم يستطع تفسيره. سيتضح مدى انخراط البيضة، التي اعتُبرت رمزًا، في نشأة الكون المبكرة في سياق آخر وأكثر ملاءمة. وبعملية مماثلة، رُمز إلى القوة الخلاقة على شكل القضيب، حيث عُرف بأنه سبب التكاثر، أو كما بدا للإنسان البدائي، سبب الخلق. وهكذا، في صقلهم لهذه الفكرة، اتخذ المصريون الجعران رمزًا للسبب الأول، الوحدة الخنثى العظيمة، لاعتقادهم أن هذه الحشرة ذكر وأنثى، قادرة على النشوء الذاتي والتكاثر المفرد، وتمتلك القدرة على إحياء عملها. من المعروف أن زهرة اللوتس، أو زنبق الماء، تُقدّس في جميع أنحاء الشرق، وتُمثّل الطوائف المختلفة في ذلك الجزء من العالم آلهتها، إما مزينة بأزهارها، أو تحملها كصولجان، أو جالسة على عرش أو قاعدة لوتس. يقول موريس: "إنها الرمز الجليل والمقدس الذي يظهر باستمرار في الأساطير الشرقية، وليس ذلك من دون سبب وجيه؛ فهي بحد ذاتها

معجزة بديعة، وتحتوي على كنز من التعاليم المادية". يشرح السيد باين نايت سبب اعتمادها رمزًا، ويقدّم توضيحًا بديعًا لمنطق الرمزية، وللأهمية العميقة التي غالبًا ما تُخفى تحت رموز تبدو تافهة. ١٨

يلاحظ السيد نايت أن "هذا النبات ينمو في الماء، ومن بين أوراقه العريضة تُزهر زهرة، في وسطها وعاء بذرته، على شكل جرس أو مخروط مقلوب، مثقوب من الأعلى بتجاويف أو خلايا صغيرة، تنمو فيها البذور. ولأن فتحة هذه الخلايا صغيرة جدًا بحيث لا تسمح للبذور بالتساقط عند نضجها، فإنها تنطلق إلى نباتات جديدة في أماكن تشكلها؛ ويعمل بصيلة الوعاء كركيزة لتغذيتها حتى تكبر بما يكفي لتفجيرها وتحرير نفسها، وبعد ذلك، مثل النباتات المائية الأخرى، تتجذر أينما يرسّبها التيار. وبالتالي، ولأن النبات منتج بذاته، وينمو من بذرته الخاصة، دون أن يُغذّى في الأرض، فقد تم اعتماده بشكل طبيعي كرمز للقوة الإنتاجية للمياه التي تنشط عليها الروح النشطة.

لقد كان للخالق دور في إعطاء الحياة والنبات للمادة. وبناءً على ذلك، نجده مستخدمًا في كل جزء من نصف الكرة الشمالي حيث وُجد الدين الرمزي، الذي يُسمى خطأً عبادة الأصنام.

توضح الأمثلة المذكورة القوى الاستقرائية التي يصل بها العقل غير المنحاز إلى نتائجه، وكذلك الوسائل التي يُشير بها إليها في غياب لغة مكتوبة أو لغة قادرة على نقل الأفكار المجردة. تُقدم الرموز الأسطورية لجميع الأمم المبكرة دليلاً كافيًا على أنها بهذه الطريقة جسّدت أو مثّلت مفاهيمها - بذرة نظام رمزي، امتد لاحقًا ليشمل كل مظهر من مظاهر الطبيعة وكل سمة من سمات الألوهية.

يمكننا بهذه الطريقة أن نفسر بشكل عقلاني ومرضٍ أصل عقيدة المبادئ المتبادلة. إن قبولها العالمي يُثبت أنها استُنتجت من عمليات ذلك القانون الذي يحكم بوضوح كل طبيعة حية - قانون التكاثر أو التناسل.

في الأساطير المصرية، كان الإله أوزوريس كان يُبجَّل باعتباره الطاقة الفاعلة، المُوزِّعة، أو المُنشِئة، ويُرمَز له بالشمس؛ والسَّوْسَنَةُ كطبيعةٍ أرضية، مُستقبِلةٍ سلبية، مُنتِجة؛ وكان ذريتهما السنوية حورس، فصل الربيع أو سنة الولادة. يُميّز الشاعر هسيود، في بداية كتابه "ثيوغوني"، بين قوى الطبيعة المذكرة والمؤنثة، أو قوى الطبيعة المُولِّدة والمُنتِجة، كأورانوس وغايا، السماء والأرض. كانت الرموز السماوية لهذه القوى عادةً، كما ذكرنا، الشمس والقمر؛ والأرضية، النار والأرض. صُمِّمت هذه القوى كأب وأم؛ وكانت رموزها الأكثر وضوحًا، كما ذُكِر سابقًا، هي القضيب والكيتيس، أو اللينغام واليوني في هندوستان.

إن انتقال عبادة القضيب من الهند أو من إثيوبيا إلى مصر، ومن مصر إلى آسيا الصغرى، وإلى اليونان، ليس أمرًا مُثيرًا للدهشة - فهذه تواصلت الأمم فيما بينها؛ لكن وجود هذه العبادة في بلدان لم تكن معروفة لبقية العالم منذ زمن طويل - في أجزاء كثيرة من أمريكا، التي لم يكن لشعوب القارة الشرقية أي تواصل معها سابقًا - أمرٌ مثيرٌ للدهشة ولكنه مؤكد. عندما اكتُشفت المكسيك، وُجدت في مدينة بانوكو عبادةٌ خاصةٌ للقضيب راسخة، وزُيّنت صورته في المعابد؛ وكانت هناك نقوشٌ بارزةٌ في الأماكن العامة، تُمثل، مثل تلك الموجودة في الهند، اتحاد الجنسين بطرقٍ مختلفة. في تلاسكالا، وهي مدينةٌ أخرى في المكسيك، كانوا يُبجّلون عملية الإنجاب تحت رموزٍ مُتحدةٍ للأعضاء المميزة للجنسين. يقول غارسيلاسو دي لا فيغا: "وفقًا لبلاس فاليرا، كان يُدعى إله الترف تيازولتيولي"، لكن بعض الكُتّاب يقولون: "هذا خطأ". إحدى آلهة المكسيك سُمي البانثيون تيازولوتل، الذي يصفه بوتوريني بأنه فينوس، فاسقة، وضيعة، وبغيضة، وهو

الرمز الهيروغليفي لهؤلاء الرجال والنساء المهجورين تمامًا، الذين يختلطون فيما بينهم بلا مبالاة، مُشبعين شهواتهم الوحشية كالحيوانات. ويُقال إن بوتوريني لم يكن مُصيبًا تمامًا في فهمه لشخصية هذه الإلهة. إنها سينتوتل، إلهة الذرة، ولكن في صورة أخرى.

تزخر بعض معابد الهند بتماثيل منحوتة لرموز عبادة القضيب، وإذا انتقلنا إلى معابد أمريكا الوسطى، التي تُبدي في كثير من النواحي تطابقًا صارمًا مع معابد الهند، فسنجد الرموز نفسها تمامًا، منفصلة ومُركبة.

# الفصل الرابع. المعالم الأثرية في الغرب - وادي المسيسيبي

تتكون الآثار القديمة في غرب الولايات المتحدة في معظمها من مرتفعات وسدود ترابية وحجارة، شُيّدت بجهد كبير وتصميم بديع. وبالتزامن مع هذه الآثار، التي تتفاوت أهميتها، توجد آثار فنية ثانوية متنوعة، تتألف من زخارف وأدوات متنوعة، بعضها مصنوع من المعدن ومعظمها من الحجر.

تنتشر هذه الآثار على مساحة شاسعة من البلاد. توجد على منابع نهر أليغاني، في الجزء الغربي من ولاية نيويورك شرقًا؛ وتمتد من هناك غربًا على طول الشاطئ الجنوبي لبحيرة إيري، وعبر ولايتي ميشيغان وويسكونسن، إلى ولاية أيوا وإقليم نبراسكا غربًا. وتوجد بعض الأعمال القديمة، التي يُحتمل أنها تنتمي إلى نفس نظام آثار وادي المسيسيبي، والتي أقامها نفس الأشخاص، على نهر سسكويهانا حتى وادي وايومنغ في ولاية بنسلفانيا. يبدو أن بناة التلال قد تجاوروا مع الحدود الجنوبية لبحيرة إيري، وانتشروا بأعداد قليلة في الجزء الغربي من ولاية نيويورك، على طول شواطئ بحيرة أونتاريو حتى نهر سانت لورانس. ثم توغلوا في الداخل شرقًا، حتى مقاطعة أونونداغا، حيث لا تزال بعض الآثار الطفيفة لأعمالهم قائمة. ويبدو أن هذه كانت حدودهم في الشمال الشرقي. لا يوجد لدينا أي سجل لوجودهم فوق البحيرات العظمى. يذكر كارنر وجود بعضهم على شواطئ بحيرة بيبين، ويُقال إن بعضهم الآخر يقع بالقرب من بحيرة ترافرز، تحت خط العرض 46. وقد رآهم لويس وكلارك على نهر ميسوري، على بُعد ألف ميل فوق ملتقاه بنهر المسيسيبي؛ كما لُوحظوا على نهري كانزاس وبلات، وعلى أنهار غربية نائية أخرى. توجد هذه الطيور في جميع أنحاء البلاد المتوسطة، وتنتشر عبر وادي نهر المسيسيبي إلى خليج المكسيك. وتمتد على طول شواطئ الخليج من تكساس إلى فلوريدا، وتمتد بأعداد أقل إلى ولاية كارولينا الجنوبية. وتوجد بأعداد كبيرة في ولايات أوهايو، وإنديانا، وإلينوي، وويسكونسن، وميسوري، وأركنساس، وكنتاكي، وتينيسي، ولويزيانا، وميسيسيبي، وألاباما، وجورجيا، وفلوريدا، وتكساس. وتوجد بأعداد أقل في الأجزاء الغربية من نيويورك، وبنسلفانيا، وفيرجينيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية؛ وكذلك في ميشيغان، وأيوا، وفي الأراضي المكسيكية الواقعة وراء ريو غراندي ديل نورتي. باختصار، تشغل هذه الطيور حوض نهر المسيسيبي بأكمله وروافده، وكذلك السهول الخصبة على طول الخليج. على الرغم من امتلاك هذه الأعمال لنقاط تشابه عامة تُثبت أصلًا متقاربًا، إلا أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام جغرافية رئيسية، تُمثل تناقضات صارخة في كثير من النواحي، لكنها تتداخل تدريجيًا بحيث يستحيل تحديد أين تنتهي إحدى السلاسل وتبدأ الأخرى. في المنطقة المُطلة على البحيرات العليا، إلى حد ما في ميشيغان وأيوا وميسوري، وخاصة في ويسكونسن، نجد سلسلة من البقايا، فريدة تمامًا في شكلها، ولا تُقدم سوى تشابه طفيف مع أي منها في أي جزء من العالم. والجزء الأكبر منها عبارة عن هياكل أرضية تحمل أشكال حيوانات وطيور وزواحف، وحتى بشر؛ وهي غالبًا ما تكون ذات أبعاد هائلة، تُشكل نقوشًا بارزة ضخمة على وجه البلاد. وهي كثيرة جدًا، وفي معظم الحالات، تقع في نطاقات طويلة ومترابطة ظاهريًا. فيما يتعلق بها، توجد العديد من التلال المخروطية، وأحيانًا خطوط قصيرة من السدود، تُشكل في حالات نادرة أسوارًا. تقتصر هذه التماثيل الحيوانية بشكل رئيسي على ولاية ويسكونسن، وتمتد عبر المنطقة من فورد دو لاك باتجاه الجنوب الغربي، صاعدةً نهر فوكس، وتتبع المسار العام لنهري روك وويسكونسن وصولًا إلى نهر المسيسيبي. قد تكون منتشرة على نطاق أوسع بكثير؛ ولكن هنا فقط لوحظت بأعداد كبيرة. في ميشيغان، وكذلك في ولايتي أيوا وميسوري، يُقال إن

ارتفاعات مماثلة ذات حدود خارجية متفاوتة الحدة توجد. تُمثل على أنها متفرقة في نطاقات تشبه مباني مدينة حديثة، وتغطي أحيانًا قوسًا من عدة أفدنة. عدد هذه البقايا القديمة محسوبٌ بدقةٍ لإثارة الدهشة، وقد استُخدم لدعم فرضية أنها في معظمها، إن لم يكن جميعها، تكوينات طبيعية، "نتيجةً لفعل طوفان"، ربما عُدِّلت في بعض الحالات، ولكن لم يُنشئها الإنسان قط. بالطبع، لم يُقدِّم أيُّ شخصٍ حظي بفرصة رؤيتها وفحصها أيَّ اقتراحٍ من هذا القبيل. لا يُمكن أن تُقدِّم الهياكل الترابية البسيطة أدلةً أكثر وضوحًا على أصلٍ اصطناعيٍ من معظم الآثار الغربية. تظهر الأدلة الداعمة لهذا الادعاء، والمستمدة من شكل هذه البقايا وبنيتها وموقعها ومحتوياتها، بشكلٍ كافٍ في صفحات هذا العمل.

إن البنية، لا تقلُّ عن شكل وموقع عددٍ كبيرٍ من الأعمال الترابية في الغرب، وخاصةً وادي سيوتو، تُوضِّح أنها شُيِّدت لأغراض غير دفاعية. إن صغر حجم معظم الدوائر، ووجود خندق داخل السدود، وكون العديد منها مُحاطًا بالكامل بارتفاعات مجاورة، هي بعض الظروف التي يُمكن ذكرها لدعم هذا الاستنتاج. لذا، يجب أن نبحث في الصلة التي وُجدت فيها هذه الأعمال وفي طبيعة التلال، إن وُجدت داخل جدرانها، عن سرّ أصلها. ويُلاحظ أننا نكتشف هنا أدلةً أكثر إقناعًا وتأكيدًا مما تُقدمه أبعادها الصغيرة والظروف الأخرى المذكورة أعلاه، على أنها لم تكن مُخصصة للدفاع. وهكذا، عندما نجد حظيرة تضم عددًا من التلال، والتي يُمكن إثبات أنها جميعًا كانت ذات أغراض دينية أو مرتبطة بطريقة ما بخرافات من بنوها، فإن الاستنتاج الذي لا مفر منه هو أن الحظيرة نفسها كانت تُعتبر مقدسة أيضًا، وبالتالي صُنفت على أنها أرض "محرمة" أو مُقدسة - خاصةً عندما يتضح للوهلة الأولى أنها لا تمتلك أيًا من متطلبات العمل العسكري. ولكن لا ينبغي الاستنتاج أن تلك الحظائر وحدها، التي تحتوي على تلال من الوصف المذكور هنا، صُممت لأغراض مقدسة. لدينا ما يدعونا للاعتقاد بأن النظام الديني لبناة التلال، مثل نظام الأزتك، مارس بينهم نفوذًا كبيرًا، إن لم يكن مُسيطرًا. ربما كانت حكومتهم، على حد علمنا، حكومة كهنوتية؛ كان ذلك بمثابة حصنٍ تُمارس فيه الوظائف الكهنوتية والمدنية معًا، وحصنٍ قويٍّ بما يكفي لضمان تشييد العديد من تلك الآثار الضخمة في وادي المسيسيبي، كما حدث في المكسيك، والتي ستظل تُثير دهشة البشر لقرون. ربما كانت هناك طقوسٌ خرافيةٌ لا علاقة لها بأغراض التلال، تُمارس في الأسوار المُخصصة لها. ومن الاستنتاجات التي يُؤكدها التحقيق والملاحظة اليومية أن معظم، وربما جميع، الأعمال الترابية التي لا تتسم بطابع دفاعي واضح كانت مرتبطةً بطريقةٍ ما بالحقوق الخرافية للبناة، وإن كان من المستحيل، وربما سيظل من المستحيل، تحديد كيفية ذلك بشكلٍ مُرضٍ. من أكثر الأعمال الترابية غرابةً وإثارةً للاهتمام التي اكتُشفت في الغرب، بلا منازع، هي "الثعبان العظيم"، الواقع على جدول بروش كريك عند نقطة تُعرف باسم "الفروع الثلاثة"، بالقرب من الخط الشمالي لمقاطعة آدامز، أوهايو. يشغل هذا الموقع قمة تلٍّ هلاليٍّ مرتفع، أو نتوء أرضي، يرتفع مائة وخمسين قدمًا فوق مستوى جدول بروش كريك الذي يغسل قاعدته. يُشكّل جانب التل المجاور للجدول جدارًا صخريًا عموديًا، بينما ينحدر الجانب الآخر بسرعة، وإن لم يكن شديد الانحدار بحيث يمنع الزراعة. قمة التل ليست مستوية، بل محدبة قليلاً، وتُمثّل سطحًا مستوٍ للغاية، عرضه مائة وخمسون قدمًا وطوله ألف قدم، بدءًا من طرفه حتى نقطة اتصاله بالأرض المسطحة. يتوافق الثعبان مع منحنى التل ويحتل قمته، حيث يستقر رأسه بالقرب من النقطة، وجسمه يلتف للخلف لمسافة سبعمائة قدم في تموجات رشيقة، وينتهي بلفافة ثلاثية عند الذيل. الطول الإجمالي، إذا تم تمديده، لن يقل عن ألف قدم. رقبة الثعبان ممدودة ومنحنية قليلاً، وفمه مفتوح على مصراعيه كما لو كان يبتلع أو يقذف شكلاً بيضاويًا

يستقر جزئيًا داخل فكيه المنتفخين. يتكون هذا الشكل البيضاوي من حاجز ترابي، بدون أي فتحة ملحوظة، بارتفاع أربعة أقدام، وهو منتظم تمامًا في مخططه، ويبلغ قطره العرضي والمتصل مائة وستين وثمانين قدمًا على التوالي. الأرض داخل الشكل البيضاوي مرتفعة قليلاً؛ كان يوجد في مركزه ارتفاع دائري صغير من أحجار كبيرة محترقة، لكن بعض الزوار الجاهلين ألقوها وتناثرت، ظنًا منهم أن الذهب كان مخفيًا تحتها. يبدو أن قمة التل التي يستقر عليها هذا التمثال البيضاوي الشكل قد نُحتت بشكل مصطنع لتتوافق مع شكله، تاركةً منصة ملساء، عرضها عشرة أقدام ومائلة إلى الداخل قليلًا، حولها.

على جانبي رأس الثعبان، يمتد ارتفاعان مثلثان صغيران، ارتفاعهما عشرة أو اثني عشر قدمًا. ليسا مرتفعين، ورغم أنهما واضحان جدًا بحيث لا يمكن إغفالهما، إلا أنهما طمسا كثيرًا بحيث لا يمكن تتبعهما بدقة.

يوجد تمثال على شكل تمساح بالقرب من غرانفيل، مقاطعة ليكينغ، أوهايو، على تل أو رأس مرتفع؛ وتوجد أدلة واضحة على وجود مذبح، مشابه للمذبح المرتبط بالعمل المذكور آنفًا. يُعرف في المنطقة باسم "التمساح"، وقد أُطلق عليه هذا الاسم لعدم وجود اسم أفضل، مع أن شكله يُشبه السحلية أكثر من أي زاحف آخر.

مُنحنى بشكل عرضي إلى نقطة الأرض التي وُجد عليها، والرأس متجهًا نحو الجنوب الغربي. يبلغ الطول الإجمالي من نقطة الأنف التي تتبع منحنى الذيل إلى طرفه حوالي مائتين وخمسين قدمًا، وعرض الجسم أربعين قدمًا، وطول القدمين أو الكفوف ستة وثلاثين قدمًا لكل منهما. أطراف الكفوف أعرض قليلًا من الأجزاء المتبقية منه، كما لو كان امتداد أصابع القدم قد أُشير إليه في الأصل. بعض أجزاء الجسم أعلى من غيرها، ويبدو أن محاولة بُذلت للحفاظ على نسب القطعة المنسوخة قد بُذلت. مخطط التمثال واضح؛ ولا يقل متوسط ارتفاعه عن أربعة أقدام؛ ويبلغ ارتفاعه عند الكتفين ستة أقدام. وعلى الجانب الداخلي من التمثال توجد مساحة دائرية مرتفعة مغطاة بحجارة مُحرقة. وقد سُميت هذه المساحة مذبحًا. يبدو من المرجح جدًا أن هذا التمثال الفريد، مثل التمثال الموصوف سابقًا، يعود أصله إلى خرافة صانعيه. ربما كان المكان المرتفع حيث كانت تُقدم القرابين في مناسبات مُحددة أو استثنائية، وحيث كان القدماء يجتمعون للاحتفال بطقوس عبادتهم المجهولة. موقعه وجميع الظروف المحيطة به تُعزز هذا الاستنتاج بالتأكيد.

وينطبق الأمر نفسه على عمل على شكل صليب، يشغل موقعًا مشابهًا بالقرب من قرية تارلتون، مقاطعة بيكاواي، أوهايو. بناءً على هذه المقدمات، نجد مبررًا لاستنتاج أن هذه التماثيل العديدة (25) ربما كان لها تصميم مُشابه، وأهمية رمزية، وكانت أشياء بارزة ذات أهمية دينية، وأنه في بعض المناسبات كانت تُقدم القرابين على المذابح داخلها أو بالقرب منها.

الهياكل الوحيدة التي تُشير إلى أي تشابه مع هذه موجودة في ولاية ويسكونسن وأقصى الشمال الغربي. هناك نجد أعدادًا كبيرة من التلال التي تحمل أشكال حيوانات متنوعة، وتتداخل في تركيبات متنوعة، ومع تلال مخروطية وخطوط سدود، وهي أيضًا وفيرة. توجد هذه التلال عادةً في المروج المنخفضة أو المستوية أو المتموجة، ونادرًا ما توجد في مواقع بارزة كتلك التي اكتُشفت في أوهايو. لا يُفترض أن تُحدد ما إذا

كانت قد بُنيت من قِبل نفس الأشخاص الذين اكتُشفت في أوهايو، وما إذا كان لها تصميم وغرض مشتركان، كما أننا لسنا بصدد الخوض في هذا السؤال.

ومن الحقائق المثيرة للاهتمام أنه من بين تماثيل الحيوانات في ويسكونسن، تكثر الهياكل على شكل ثعابين. قبل بضع سنوات، رسم السيد بيجون، من ولاية فرجينيا، عددًا من هذه الآثار، وذكر أنه بالقرب من ملتقى كاتدرائية القديس بطرس مع نهر المسيسيبي، كان هناك عدد كبير من التلال والآثار، تتكون من: أولاً، دائرة ومربع معًا، كما هو الحال في سيركلفيل، أوهايو، والفرق الوحيد هو تل كبير مقطوع في وسط المربع، وكذلك في وسط الدائرة، مع منصة حول قاعدته؛ ثانيًا، بالقرب منه، تمثال لحيوان عملاق يشبه الأيل، يبلغ طوله مائة وخمسة وتسعين قدمًا؛ ثالثًا، في نفس المنطقة، تل كبير مخروطي الشكل، قطر قاعدته ثلاثمائة قدم، وارتفاعه ثلاثون قدمًا، وقمته مغطاة بالفحم. كان هذا التل محاطًا بمائة وعشرين تلًا أصغر، مرتبة على شكل دائرة. على بُعد اثني عشر ميلاً غرب هذه التلال، وعلى مرمى البصر منها، كان هناك تل مخروطي كبير مقطوع الشكل، قطره ستون قدمًا عند القاعدة، وارتفاعه ثمانية عشر قدمًا، مبني على منصة مرتفعة. كان محاطًا بدائرة محيطها ثلاثمائة وخمسة وستين قدمًا. يلتف حول هذه الدائرة، في لفافة ثلاثية، جسر ترابي على شكل ثعبان، طوله ألفان وثلاثمائة وعشرة أقدام. كان قطر هذا الجسر، في مركز الجسم، ثمانية عشر قدمًا، ولكنه يتناقص باتجاه الرأس والذيل بشكل متناسب. كان ارتفاع الرأس أربعة أقدام، والجسم ستة أقدام وستة وعشرين قدمًا، والذيل قدمين. كان التل المركزي مغطى بطين أزرق، وأسفله رمل ممزوج بالفحم والرماد. عُثر أيضًا على تلال مُرتبة على شكل أفعى في ولاية آيوا، في مكان كان يُعرف سابقًا باسم برايري لا بورت، والذي سُمي لاحقًا غوتنبرغ. كما عُثر على تلال أخرى على بُعد سبعة أميال شمال هذه التلال على نهر تركيا، حيث كان طول السلسلة ميلين ونصف، وكانت التلال تظهر على فترات منتظمة. وعلى بُعد عشرين ميلًا غرب هذه المنطقة، عُثر على تمثال لثعبان كبير أمام فمه تمثال لسلحفاة. وُجد أن طول هذا الهيكل ألف وأربعة أقدام، وعرضه ثمانية عشر قدمًا عند أوسع جزء منه، وارتفاعه ستة أقدام؛ وكانت أبعاد السلحفاة ثمانية عشر قدمًا في اثني عشر قدمًا. وقد قدّم السيد بيجون وصفًا للعديد من الهياكل الأخرى، مُوضحًا ومؤكدًا الآراء المطروحة بشأن الطابع الديني والرمزي وتصميم العديد من، إن لم يكن جميع، الأعمال الترابية الأكثر انتظامًا في الولايات الغربية. على بعد ثلاثين ميلاً غرب برايري دو شين، وجد دائرة تحيط بخماسية، والتي بدورها تحيط بدائرة أخرى، كان التلّ رقيقًا، وكان عبارة عن تلٍّ مخروطي مقطوع. كان محيط الدائرة الخارجية ألفًا ومائتي قدم، وعرض السد اثني عشر قدمًا، وارتفاعه من ثلاثة إلى خمسة أقدام. كان المدخل من جهة الشرق.

كان قطر التل ستة وثلاثين قدمًا وارتفاعه اثني عشر قدمًا. كانت قمته مصنوعة من طين أبيض مغلي، وُجد تحته كمية كبيرة من الميكا على شكل صفائح. وقد أظهرت آثارًا وفيرة للنار.

على بُعد أربعة أميال من هذا، في الأراضي المنخفضة لنهر كيكابو، اكتشف السيد بيجون تلًا بثماني نقاط مشعة، صُممت بلا شك لتمثل الشمس. كان قطره عند القاعدة ستين قدمًا، وارتفاعه ثلاثة أقدام. امتدت النقاط إلى الخارج حوالي تسعة أقدام.

كان يحيط بهذا التل خمسة تلال هلالية الشكل، مرتبة بحيث تُشكل دائرة. اكتُشفت العديد من الهياكل المماثلة في أماكن أخرى، في كل من ويسكونسن وأيوا. في كابيل بلافز، على نهر المسيسيبي، عُثر على تلة مخروطية مقطوعة، محاطة بتسعة تماثيل بشرية مشعة، رؤوسها متجهة إلى الداخل.

لعلّ أحدًا لن يتردد في إسناد أهمية استثنائية للعمل الموصوف آنفًا. لا يُمكن افتراض أنه وليد خيال فارغ أو نزوة وحشية. فهو يحمل، في موقعه وتناغم بنيته، دلائل التصميم، ويبدو أنه بُدئ فيه وأُنجز وفقًا لخطة مدروسة، وليس نتيجة تركيبات متتالية لا معنى لها. ربما لا يكون هذا العمل جديرًا بالدفاع عنه، إذ لا يوجد ما يُدافع عنه؛ على العكس من ذلك، فهو، بوضوح لا لبس فيه، في الشكل والوضعية، تمثيلٌ لثعبانٍ بفكين منتفخين، وهو يبتلع أو يقذف شكلاً بيضاويًا، يمكن تمييزه، من خلال إيحاءات القياس، بأنه بيضة. بافتراض أن البنية بأكملها ذات أصل ديني، لا يمكن اعتبارها إلا رمزًا معترفًا به لفكرة أسطورية عظيمة.

ما هو المفهوم المجرد الذي جُسّد على هذا النحو؛ أو ما هو حجم ما يُخلّد عادةً بهذه الطريقة؟ ليس لدينا وسيلة أكيدة لمعرفة ذلك!

ومع ذلك، فإن القياس، وإن كان يُلجأ إليه في كثير من الأحيان لأسباب تافهة، يُزودنا ببصيص نور، ذي ثبات أكبر أو أقل، وفقًا لاستغاثاتنا له، في كل موضوع مرتبط بمعتقدات الإنسان. ننتقل الآن لاكتشاف مدى النور الذي يُلقيه العقل والقياس على البنية الفريدة التي أمامنا. بطبيعة الحال، وكاد يكون ضروريًا، ارتبطت البيضة بفكرة الإنسان البدائية عن الخلق. لقد مثّلت ببراعة تلك الحالة البدائية الخاملة للأشياء التي سبقت حيويتها ونشاطها - الفوضى الجامدة، قبل نشأة الحياة، عندما كانت الأرض خاوية وخالية، والظلام يلفّ وجه الغمر. وهكذا رُسِمَت في عصور نشأة الكون المبكرة، حيث كان إنعاش البيضة الدنيوية في جميعها بمثابة فعل الخلق؛ ومنه انبثق العالم المتألق في المجد والنابض بالحياة. يقول فابر: "اعتاد الوثنيون القدماء، في كل بقاع الأرض تقريبًا، أن يرمزوا للعالم ببيضة. ومن هنا جاء هذا الرمز في نظريات نشأة الكون لدى جميع الأمم تقريبًا، وقليلون هم من لم يدرسوا الأساطير، ممن لا يعرفون تمامًا البيضة الدنيوية. فقد استُخدمت ليس فقط لتمثيل الأرض، بل أيضًا لتمثيل الكون في أوسع امتداداته". (أصل المعبود الوثني، المجلد الأول، ص ١٧٥)

يقول مينو: "كان العالم كله ظلامًا، لا يُدرك ولا يُميز، غارقًا في سبات عميق، حتى تجلى الإله الخفي (براهم) بخمسة عناصر وأشكال مجيدة أخرى، فبدّد الظلام تمامًا. رغبةً منه في إحياء المخلوقات بفيض من جوهره، خلق المياه أولًا، وألهمها قوة الحركة؛ وبهذه القوة وُلدت بيضة ذهبية، متوهجة كألف نجمة، وُلدت فيها

٢٨

براهما، الأب الأعظم للكائنات الوطنية، ذلك الذي هو السبب الخفي، الكائن بذاته، ولكنه غير محسوس. وقد سكنت هذه الإلهة البيضة على مر السنين، وهي تتأمل في نفسها، منقسمة إلى قسمين متساويين، ومن هذين النصفين خلق السماوات والأرض، واضعًا في وسطها الأثير الرقيق، ونقاط العالم الثمانية، والمستودع الدائم للمياه.

ما سبق هو ترجمة موريس. ترجمها السير ويليام جونز على النحو التالي: "إن القوة الوحيدة القائمة بذاتها، والتي أرادت أن تُنتج كائنات مختلفة من جوهرها الإلهي، خلقت المياه أولًا بفكرة، ووضعت فيها بذرة مثمرة. أصبحت تلك البذرة بيضة، لامعة كالذهب، متوهجة كالنجم بألف شعاع، وفي تلك البيضة وُلد هو نفسه، في صورة براهما، الأب الأعظم لجميع الأرواح".

يُعتقد أن أريستوفانيس، في كوميديا الطيور، قد أعطى مفاهيم علم نشأة الكون، القديمة حتى في أيامه. "كانت الفوضى والليل وإريبس الأسود وتارتاروس الواسع موجودة في البداية: لم تكن هناك أرض ولا هواء ولا سماء؛ ولكن في حضن إيريبس، أنتج الليل ذو الأجنحة السوداء بيضة جوية، من وُلِدتُ الحبَّ الذهبيَّ (فانيس)، وهو، الأبُّ الكونيُّ العظيم، أنجبَ جنسنا من فوضى مُظلمة، في خضمِّ تارتاروس المُتشعِّب، ودعانا إلى النور.

نجدُ هذا المفهوم مُجسَّدًا بوضوح في إحدى المقاطع الأورفية، ترنيمة بروتوجونيس، المُعادلة لفانيس، واهب الحياة، بريابوس، أو المُولِّد.

"أُنادي إليكَ يا بروتوجونيس، يا ذا الوجهين، العظيم، المُتجوّل في الأثير؛

يا مولود البيضة، مُبتهجًا بأجنحتِك الذهبية؛

يا ذا الوجه الثور، مُولِّد البشر المُباركين والفانيين؛

يا النورَ المُعروفَ، إريكابايوس الشهير؛

يا قوةً لا تُوصف، غامضةً، مُندفعةً، مُتلألئةً بكلِّ تألق؛

الذي يبدد سحابة الشفق المظلمة عن العيون، ويجوب العالم على طيران جناحيك، 29 ويخرج النور الساطع النقي؛ لذلك أدعوك، بصفتك فانيس، وبصفتك بريابوس الملك، وبصفتك البهاء ذو الوجه الداكن، تعالَ أيها الكائن المبارك، الممتلئ بالحكمة والتكاثر، تعالَ بفرح إلى أسرارك المقدسة دائمة التغير.

لدينا، وفقًا لهذه المفاهيم المبكرة، البيضة التي تمثل الوجود ببساطة؛ والفوضى، ذلك الفراغ العظيم الذي ينبثق منه، بإرادة الوحدة الفائقة، التأثير المولّد أو الخلاق، والذي عُرف بين الإغريق باسم "فانيس"، و"الحب ذو الجناح الذهبي"، و"الأب الكوني"، و"المولود من البيضة" (زيوس أو جوبيتر لاحقًا)؛ وفي الهند باسم "براهما"، "الأب الأعظم للمخلوقات العاقلة"، و"أبو الكون"، وفي مصر باسم "بثا"، "الخالق الكوني."

وكان لدى الصينيين، الذين تتوافق مفاهيمهم الدينية عمومًا مع مفاهيم الهند، مفاهيم مماثلة. مفاهيم أصل الأشياء. وقد أوضحوا أن الفوضى، قبل الخلق، كانت موجودة على شكل بيضة ضخمة، تحتوي على مبادئ كل شيء. وكان إنعاشها، من بينها، بمثابة عملية الخلق.

ووفقًا لهذه المصادر وغيرها، يُمثل إنعاش البيضة الدنيوية مجازيًا في معبد دايبود، في اليابان، ببيضة عش، تظهر طافية في مساحة واسعة من المياه، يضربها بصلة (رمز الطاقة المولدة والحرارة الغزيرة، الشمس) بقرونها.

قرب ليميسو، في جزيرة قبرص، لا يزال بالإمكان رؤية مزهرية ضخمة على شكل بيضة، يُفترض أنها تمثل البيضة الدنيوية أو البيضة الأورفية.

وهي مصنوعة من الحجر، ويبلغ محيطها ثلاثين قدمًا. على أحد جوانبها، في كوة نصف دائرية، نُحت ثور، رمز الطاقة المولدة. يُفهم من هذا الشكل أنه يدل على كوكبة الثور، "نجوم الوفرة"، حيث ارتبط شروقها الحلزوني أو الكوني بعودة المبدأ الصوفي المُنعش للخصوبة الحيوانية(Landseer's Sabæan Res.) .

في الرأي المذكور أعلاه، شاركت العديد من أمم العالم القديم الأخرى، كالمصريين والآشوريين والفينيقيين والأمم الهندية السكيثية في أوروبا. لم يدعموا فقط ملاءمة الاستعارة، كما يقول موريس، من خلال كمال شكلها الخارجي، بل وسّعوا التلميح بشكل خيالي إلى تركيبها الداخلي، مقارنين القشرة البيضاء النقية بامتداد السماء الجميل؛ واللون الأبيض السائل الشفاف بالهواء المحيط، والصفار الأكثر صلابة بالأرض المركزية.

حتى البولينيزيون كانوا يحملون نفس المفاهيم العامة. تقليد سكان جزر ساندويتش هو أن الطائر (مع وضعوا بيضةً على المياه التي انفجرت من تلقاء نفسها وأنتجت الجزر. كان المبدأ الأول الخنثوي العظيم في طابعه الواحدي، الموناد الأسمى، أسمى مفهوم للألوهية، يُسمى كنيف أو كنوفيس عند المصريين. ووفقًا لبلوتارخ، كان هذا الإله بلا بداية ولا نهاية، الواحد، غير المخلوق والأبدي، فوق كل شيء، ويحيط بالكل. وكما أن براهم، "وحدة الوجود الذاتي غير القابلة للفساد" عند الهندوس، بتوجيه من إرادته النشطة على امتداد الفوضى، "بفكرة" (كما يقول مينو) أنتج "بيضةً ذهبيةً تتوهج كألف نجمة"، انبثق منها براهما، الخالق؛ وهكذا، وفقًا لعلماء النفس، كان كنيف، وحدة مصر، يُمثل على شكل ثعبان يُخرج من فمه بيضةً، منها يخرج الإله فثا، القوة الخلاقة الفاعلة، المعادل في جميع صفاته لبراهما الهندي. ومن المعروف أن المصريين القدماء صوّروا كنيف على شكل ثعبان. ومع ذلك، ليس من الثابت تمامًا أن عملية الخلق كانت تُمثَّل مجازيًا في مصر بالثعبان الرمزي الذي يُخرج بيضة من فمه، على الرغم من أن هذه الحقيقة لا شك فيها على ما يبدو لدى مختلف المؤلفين الذين كتبوا حتى الآن عن نشأة الكون وأساطير الأمم البدائية في الشرق. وبغية استجلاء ما أُلقي من ضوء جديد على هذا الموضوع من خلال أبحاث شامبليون الدؤوبة وأتباعه - الذين حققت أبحاثهم في آثار وسجلات مصر القديمة نتائج باهرة للغاية - وُجِّهت الاستفسارات التالية إلى السيد ج. ر. غليدون (قنصل الولايات المتحدة في القاهرة)، رجلٌ نبيلٌ اشتهر بمعرفته بالعلوم المصرية، وحماسه لنشر المعلومات حول موضوعٍ لم يُفهم جيدًا:

31

"هل يُذكر الثعبان والبيضة، منفصلين أو مُجتمعين، ضمن الرموز المصرية؟ وإذا وُجدا، فما الدلالة التي يبدو أنها أُسندت إليهما؟ هل ارتبط الثعبان بأي شكلٍ من الأشكال بعبادة الشمس أو عبادة القضيب؟" أجاب السيد غليدون على هذه الاستفسارات بما يلي: "فيما يتعلق باستفسارك الأول، أقرّ فورًا بأن النظرة العامة للعصور القديمة اليونانية الرومانية، والتقاليد الشرقية التي جمعها الآباء، غالبًا دون تمييز، وإجماع علماء الأساطير الغربيين، تنسب الرمز المركب للثعبان الممزوج بالبيضة الدنيوية إلى المصريين. ومع ذلك، فإن النقد الحديث، إلى جانب تطبيق الاختبار الذي وضعه شامبليون لو جون وأتباعه منذ عام 1827 على الهيروغليفية المصرية، قد اعترف بالعديد من الخرافات الغريبة والجهل الحقيقي بعلم المصريات في

الروايات المتعلقة بذلك البلد الغامض، والتي انتقلت إلينا من مدارس الإسكندرية وبيزنطة، لدرجة أن العلم في الوقت الحاضر يسلك طريق الشك، حيث كان من المألوف قبل بضع سنوات فقط تقديم أكثر التأكيدات شمولًا؛ ونحن الآن، ترددوا قبل وصف الأفكار التي تنتمي إلى أساطير الأمم الشرقية الأخرى بأنها مصرية الأصل. فالسلطة الكلاسيكية، وإن كانت دقيقةً بما يكفي عند تناول فلسفة الإسكندرية البطلمية والرومانية ونظرياتها التأملية، تُخطئ عادةً عندما يتعلق الأمر بمسائل تنتمي إلى العصور السابقة أو الفرعونية. كل ما نستمده من خلال السكندريين، وخاصةً من خلال خلفائهم الغنوصيين، يجب أن يُستقبل من قِبَل عالم الآثار بعين الريبة.

بعد هذا، لن تُفاجأوا إذا أعربتُ عن شكوكي حول وجود أسطورة الثعبان والبيضة في نشأة الكون لدى المصريين الأوائل. من المؤسف حقًا أنه بسبب عشرين قرنًا من الدمار، الذي ارتكبه محمد علي بفظاعة، لا نمتلك حتى يومنا هذا عُشر الآثار أو البرديات التي ورثها العبقري المُدوّن للأجيال القادمة من قِبَل الخيمي. من المُحتمل أن تكون هذه الأسطورة... وقد وردت هذه الدلالات في الكم الهائل من الأدبيات الهيروغليفية المفقودة لدينا الآن. لكن حقيقة عدم ظهور رمزي الثعبان والبيضة في أيٍّ من الوثائق المنقوشة أو المنحوتة الموجودة، تُناقض افتراض أن هذه الأسطورة، التي ربما كانت فينيقية، مصرية في الأصل.

يلاحظ أمبير أن "عبادة الأفعى من قِبل الأوفيتيين قد تكون لها بالتأكيد صلة حقيقية باختيار الرمز المصري

32

الذي يُشير إلى الألوهية في اللوحات والهيروغليفية، وهو الثعبان أوريوس (باسيليسق ملكي، عند الإغريق)، السرافيم الذي أقامه موسى. "سي را ف" هو مفرد كلمة "سيرافيم"، وتعني السامية، الروعة، النار، النور؛ رمزٌ لقرص الشمس الناري، والذي قُسِّم تحت اسم نحشتان - "التنين الثعباني" - على يد حزقيا المُصلح (الملوك الثاني، ١٨: ٤)؛ أو بالأفعى ذات الأجنحة والأقدام، التي نراها مُمَثَّلة في طقوس الجنازة؛ لكن الأفعى موجودة في كل مكان في أساطير الشرق وعلوم الكون، ولا يُمكننا الجزم بأن أفعى الأوفيت (أكثر من تلك التي تُشعّ أو تُحيط بالبيضة الدنيوية) كانت مصرية وليست يهودية أو فارسية أو هندوستانية.

"لا توجد أيّة أفاعي موجودة في الهيروغليفية، على حدّ علمي، تحمل أيّ علاقة مباشرة بأسطورة أوين، ولا توجد أيّة صلة مباشرة بين البيض المصري والأفعى الكونية. يبدو أن البيضة، في ظلّ ظروف مُعينة، تُشير إلى فكرة الجسد البشري. يُستخدم أيضًا كعلامة صوتية للحرفS ، وعند دمجه مع حرفT ، يُحدد الجنس المؤنث؛ وبهذا المعنى، يُوضع أحيانًا بالقرب من ثعبان في الأساطير الهيروغليفية.

"تسري شكوكي في محاولة إعطاء إجابة محددة لسؤالك المحدد؛ أي الصلة المباشرة، في الأساطير المصرية، بين الثعبان والبيضة الكونية. في "كتاب الموتى"، وفقًا لترجمة مخطوطة أوصى بها لي عالم المصريات المتخصص، السيد بيرش، من المتحف البريطاني، يُشار إلى "البيضة الدنيوية العظيمة" التي يخاطبها المتوفى، والتي يبدو أنها تشير إلى الرياح أو الغلاف الجوي - مرة أخرى يهتف المتوفى: "لقد رفعت نفسي على هيئة الصقر العظيم الذي يخرج من البيضة (أي الشمس)". لا أرى هنا أي إشارة مباشرة إلى الرمز المزدوج للبيضة الممزوجة بالثعبان، موضوع استفسارك.

ومع ذلك، يجب التحفظ على فرضيتك المتسقة للغاية - المدعومة، كما أسمح، بجميع المراجع الشرقية والكلاسيكية، إن لم يكن ربما بالوثائق المصرية التي لم تُفك رموزها بعد - وهي فرضية إقليدية. "الأشياء المتساوية متساوية". الآن، إذا كانت "البيضة الدنيوية" موجودة في طقوس البرديات،معادل للشمس، وأننا نثبت من خلال نصوص هيروغليفية أخرى أن الشمس، في مصر كما في أي مكان آخر، تُرمز لها بشكل ثعبان، ألا تُحل "النسبة النهائية" كلا الرمزين في رمز واحد؟ إن فهمك لـ

33

هذا السؤال عن العالم القديم والجديد يجعل من غير الضروري أن أطرح الآن هذا القياس المنطقي. أكتفي بإحالتك إلى أفضل المراجع. نقطة واحدة فقط هي ما أجرؤ على اقتراحه لذكائك الفلسفي، فيما يتعلق بـ "التوازيات" القديمة بين المفاهيم الميتافيزيقية لأمم متميزة جذريًا (إذا سمحت، "أنواع" من البشر، في مراكز أصول مختلفة جغرافيًا، مضطرة بالضرورة في العصور السابقة على السجل الأبجدي للتعبير عن أفكارها بالصور، المجازية أو الرمزية). وهي أن عقل الإنسان لطالما تصور، في كل مكان بنفس الطريقة، كل ما يتعلق به؛ لأن عجزه عن تصور وجودٍ منفصلٍ عن وجوده، يُجبره على الانحدار في التوصيف التصويري أو النحتي لأفكاره، ضمن دائرة الأفكار نفسها؛ ولذلك، يجب أن يكون المُمثل المجازي لأفكاره، في جميع العصور والبلدان، انعكاسًا لنفس الفرضيات، ماديةً كانت أم فيزيائية. ألا يُمكن أن يكون شعار الثعبان والبيضة، سواءً في العالم الجديد أو القديم، قد نشأ من قانونٍ عضويٍّ مُماثلٍ دون أن يُرسي بذلك تواصلًا؟ أليست أفعى "أفعى الجرس"، وبالتالي، أمريكيةً بحتةً؟ أليست الأفعى المصرية نيليةً بحتةً؟ قد تكون الفكرة الميتافيزيقية للثعبان الكوني واحدةً وواحدةً؛ ولكن ألا يُثبت التنوع الحيواني للتمثيل أن أمريكا، قبل ثلاثة آلاف عام، لم يكن من الممكن أن يكون لها تواصلٌ مُمكنٌ مع مصر أو فينيقيا أو العكس؟ بما أن هذه هي القيم الوحيدة المرتبطة بالثعابين والبيض في الهيروغليفية المصرية، فمن الصعب التكهن بما إذا كانت هناك دلالة باطنية بين هذه الرموز في علم نشأة الكون، الذي لا نعرفه، في جامعتي طيبة ومنف. أنا أيضًا، استطعتُ استخلاص استنتاجات وتشابهات بين صفات الإله كنوفيس، أو الإله فثا، و"البيضة الدنيوية" التي سجلها يوسابيوس، ويامبليخوس، وكثرة المراجع الكلاسيكية، لكنني أخشى ألا أتوصل إلى نتيجة مُرضية. ومع ذلك، فمن حق السيد بونومي أن يستشهد بآرائه في هذا الموضوع. ففي معرض حديثه عن الحالة الهائلة لرمسيس سيزوستريس في ميتراهيني، لاحظ في ورقة بحثية قُرئت أمام الجمعية الملكية للآداب، لندن، يونيو 1845، "هناك اعتبار آخر مرتبط بـ..." الهيروغليفية للشكل البيضاوي الكبير للحزام، وإن لم يؤثر على الحجة السابقة؛ فإن الشكل البيضاوي أو البيضة الذي يقع بين تمثال فثا والعصا هو ما يدل عليه عادةً الابن أو الطفل، ولكنه، من خلال نوع من المعنى المزدوج، الشائع في تفاصيل النحت في هذه الفترة (الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، لنقل 1500 أو 1200 قبل الميلاد)، أميل إلى الاعتقاد بأنه يشير أيضًا إلى الأسطورة أو العقيدة المحفوظة في كتابات المؤلفين اليونانيين، على أنها تنتمي إلى فولكان ويُقال إنها مشتقة من مصر، وهي عقيدة البيضة الدنيوية. الآن، على الرغم من أنه لم يتم العثور على أي إشارة إلى هذه العقيدة في أي منحوتة مصرية من الفترة البعيدة لهذا التمثال، إلا أنه تم التلميح إليها بوضوح في أحد عصر البطالمة؛ وأميل إلى الاعتقاد بأنها قد تم استيرادها من السهل بواسطة سيزوستريس، حيثُ، تأكيدًا لوجوده في فترةٍ بعيدةٍ جدًا، أودّ أن أشير إلى وجود تلك الأحجار البازلتية بيضاوية الشكل، المنقوشة بأنماطٍ مُختلفة والمغطاة بنقوشٍ مسمارية، والتي جُلبت من بعض مدن بلاد ما بين النهرين القديمة.

"فيما يتعلق باستفسارك الأخير، ألاحظ أنني لا أستطيع استخلاص أي شيء من الهيروغليفية يربط، مباشرةً، بين عبادة القضيب ورمز الأفعى الشمسي. في اللغات السامية، يُشير الجذر نفسه إلى الأفعى والقضيب؛ كلاهما، بمعنى مختلف، رمزان شمسيان.

في ثيوغونية أورفي، يُنسب أصل مماثل إلى البيضة، التي انبثق منها "بروتوجونيس المولود من البيضة"، وهو النظير اليوناني لـ "فثا" المصرية. تنبع البيضة في هذه الحالة أيضًا من الوحدة البارزة، إله الثعبان، "كرونوس الذي لا يُضاهى"، أو هرقل. (يلاحظ براينت، نقلاً عن أثيناغوراس، "كان هرقل يُعتبر الإله الرئيسي، مثل كرونوس، وقيل إنه أنتج البيضة الدنيوية. يُمثل في اللاهوت الأورفي، برمز مختلط من الأسد والثعبان، وأحيانًا الثعبان فقط.")

كان كرونوس يُعتبر في الأصل الأسمى، كما يتضح من تسميته "إيل" أو "إيلوس"، وهو نفس الاسم العبري "إيل"، ووفقًا للقديس جيروم، فهو أحد أسماء الله العشرة. يذكر داماسكيوس، في سيرة إيزيدور، بوضوح أن كرونوس كان يُعبد باسم إيل، الذي، وفقًا لسانخونياثون، لم يكن له أحدٌ أعلى منه أو سابقٌ عليه.

مثّل كلٌّ من براهم وكرونوس وكنيف الاتحاد الصوفي بين الفاعل والمتبادل.

مبادئ أساسية. اعترفت معظم الأمم البدائية، إن لم تكن كلها، بهذه الوحدة الأسمى، مع أنها لم تُسمِّها جميعًا. كان خالق الآلهة، خالقي الكون، خالقي جميع الكائنات العاقلة، الملائكة والبشر، وبناة العالم.

استنفد الكُتّاب الأوائل اللغة في محاولاتهم للتعبير عن الشخصية والصفات السامية، والقوة والكرامة الفائقة لهذه الوحدة العظيمة، التي يُقدِّر الإنسان أسمى تصور لها. يُشار إليه في الكتاب المقدس للهندوس بأنه "الكائن القدير، اللانهائي، الأبدي، غير المُدرَك، القائم بذاته؛ الذي يرى كل شيء، وإن لم يُرَ قط؛ الذي لا يُحيط به الوصف؛ الذي ينبثق منه الكون؛ الذي يحكم بسلطان، نور كل الأنوار؛ الذي لا حدود لقوته التي لا تُدرك؛ هو براهم، الكائن الواحد، الحقيقي والمجهول." (أساطير كولمان الهندوسية).

كان يُعبَّر عن الإله الأعظم لآلهة الهندوس بشكل أقل شيوعًا باسم براهم، بل بالمقطع الصوفي "أوم"، الذي يُقابل الاسم العبري "يهوه". ورغم غرابة هذه الملاحظة لدى معظم العقول، إلا أنها مع ذلك صحيحة، أن المبادئ الأساسية للدين الهندوسي كانت مبادئ التوحيد الخالص، عبادة إله واحد أسمى وأوحد. كان براهم يُعتبر أعظم من أن يُسمَّى؛ وبينما كانت صفاته الرمزية أو المشخصنة تُعبد في معابد فخمة، لم يُبنَ له أيٌّ منها. تُعاد صياغة أقدس أبيات الفيدا على النحو التالي: "الحقيقة الكاملة؛ السعادة الكاملة؛ لا مثيل لها؛ الخالد؛ الوحدة المطلقة؛ الذي لا يمكن للكلام وصفه ولا للعقل إدراكه؛ شامل لكل شيء؛ متعالٍ على كل شيء؛ مُبتهج بذكائه اللامحدود، لا يحده مكان ولا زمان؛ بلا أقدام، يتحرك بسرعة؛ بلا أيدي، يُدرك كل العوالم؛ بلا آذان، يسمع كل شيء، ويفهم كل شيء؛ بلا سبب، أول الأسباب؛ كلي الحكمة؛ كلي القدرة؛ الخالق، الحافظ، ومُحوّل كل شيء؛ هذا هو العظيم، براهم".

تُشار إلى شخصية وقوة كنيف بعبارات لا تقل سموًا وشمولًا عن تلك التي تُطلق على براهم القدير. وُصف في الكتب الهرمسية القديمة بأنه "الإله الأول، الثابت في وحدة وحدته، ينبوع كل الأشياء، جذر كل الأشكال الأولية المعقولة الموجودة، إله الآلهة، أمام الآلهة الأثيرية والسماوية والسماوية."

في أمريكا، عُرف هذا الإله الواحد العظيم، إله الآلهة، على قدم المساواة. في المكسيك باسم تيوتل، "الذي هو الكل في ذاته" (تلوك ناهواك)؛ وفي بيرو باسم فاريكوتشا، "روح الكون"؛ وفي أمريكا الوسطى ويوكاتان باسم ستونا كو أو هوناب كو، "إله الآلهة، الأصل غير المادي لكل الأشياء". وكما أن براهما الأعظم عند الهندوس، "الذي كان اسمه لا يُنطق"، كان يُعبد بلا صورة خارجية، ولم تُبنَ له معابد ولا مذابح، فكذلك تيوت الأعظم، وفاريكوتشا وهوناب كو، "الذين كان يُنطق اسماهما، كما يقول الغزاة الإسبان، بخوف شديد"، كانوا بلا صورة أو شكل خارجي للعبادة، وذلك، وفقًا لنفس المصادر، لأن كلًا منهما كان يُعتبر الإله الخفي والمجهول.

البيضة الدنيوية، التي رُسِمَت رمزًا للطبيعة الأصلية، السلبية، غير المنظمة، عديمة الشكل، لارتباطها، وفقًا للمفاهيم البدائية، برموز أخرى تُشير إلى القوة الخلاقة أو التأثير المُحيي. وهكذا، في نظرية نشأة الكون الهندوسية، يُمثَّل براهما، بعد جمود طويل، على أنه يُرتِّب العناصر السلبية، "خالقًا العالم وكل الأشياء المرئية". تحت شكل الثور الرمزي، مثّلت الطاقة المولدة كسر البيضة الساكنة. مُحاطًا بطيات شيطان الأغاثو، وهو نوع من المبدأ الفعال، عُلّق عاليًا في معابد صور. فالأفعى، مثل الثور، كانت رمزًا للشمس أو لصفات ذلك النوراني - وهو نفسه الرمز السماوي لـ "الأب الكوني"، القوة الإنجابية للطبيعة. يقول فابر: "في كل مكان، نجد الأب العظيم يُظهر نفسه في شكل ثعبان، وفي كل مكان نجد الثعبان مُتحلّيًا بصفات الأب العظيم، ويشارك في التكريمات التي مُنحت له." (أصل المعبود الوثني، المجلد الأول، ص 45). بناءً على هذا الرأي، يمكننا اعتبار الرمز المركب للأفعى والبيضة، وإن كان يُشير تحديدًا إلى الخلق العام، مثالًا على مبدأ المبادئ المتبادلة الذي، كما رأينا سابقًا، يتغلغل إلى حد كبير في كامل نسيج الفلسفة والأساطير البدائية.

وهكذا أوضحنا أن المفهوم العظيم للوحدة العليا ومبدأ المبادئ المتبادلة كانا موجودين في أمريكا بشكل واضح المعالم وسهل التعرّف عليه.

يتعلق بحثنا الحالي بالرموز التي مُثّلت بها في كلتا القارتين. ومن السهل التسليم بأن هذه الرموز لم تكن اعتباطية في العادة، بل نتجت عن ارتباطات، من نوع واضح عمومًا.

## الفصل الخامس. الشمس والنار كرمزين - الثعبان والشمس - تاوت والثعبان

من الواضح تمامًا أن النار تُعتبر رمزًا ماديًا للشمس، وأن الشمس رمزها السماوي. كما يمكننا أن نفهم بسهولة كيف أن للثور، أو الماعز، أو الكبش، أو القضيب، وغيرها من الرموز نفس الأهمية؛ وكيف أصبحت الشمس، بشكل طبيعي وشبه حتمي وعالمي، رمزًا للمبدأ الفعال، والقوة المُحيية، وكيف أصبحت البيضة رمزًا واضحًا للعناصر السلبية في الطبيعة، ولكن كيف أصبح للأفعى، كرمز، دلالة مماثلة لهذه الرموز، فهذا ليس واضحًا تمامًا. ومع ذلك، لا شك في أنها فعلت ذلك، وستظهر الأدلة مع تقدمنا؛ وبالمثل، أنها كانت ترمز أحيانًا إلى المبدأ الأول الخنثى العظيم، الوحدة العليا عند الإغريق والمصريين.

ومع أنها لم تكن ترمز دائمًا إلى الشمس، أو القوة التي ترمز إليها الشمس؛ إلا أنها، بما حملته من معانٍ مختلفة، دخلت على نطاق واسع في الأساطير البدائية. لقد جسّد الحكمة والقوة والديمومة ومبادئ الخير والشر والحياة والتكاثر. باختصار، كان رمزًا بارزًا في مصر وسوريا واليونان والهند والصين والدول الإسكندنافية وأمريكا، وفي كل مكان من العالم. وبتعبيرٍ شعريٍّ إلى حدٍّ ما لمؤلفٍ مثقف، "دخل في أساطير كل أمة، وكرّس كل معبد تقريبًا، ورمز إلى كل إله تقريبًا، وخُيّل في السماوات، وخُتم على الأرض، وحكم عوالم الحزن الأبدي". ويبدو أن قبوله العام قد لوحظ في فترة مبكرة جدًا. فقد لفت انتباه الحكماء القدماء، الذين عزوا إليه أسبابًا متنوعة، تستند إلى التاريخ الطبيعي للزواحف. من بين هذه التكهنات، لا يوجد ما هو أكثر غرابة من تلك التي احتفظ بها سانخونياثون، الذي يقول: "كان تاوت أول من نسب شيئًا من الطبيعة الإلهية إلى الثعبان، وتبعه في ذلك الفينيقيون والمصريون. فقد اعتبر هذا الحيوان أكثر الزواحف روحانية، وذا طبيعة نارية، إذ يتميز بسرعة مذهلة، إذ يتحرك بروحه، دون أيدٍ أو أقدام، أو أي من الأعضاء الخارجية التي تحرك بها الحيوانات الأخرى: وفي حركته، يتخذ أشكالًا متنوعة، ويتحرك في مسار حلزوني، ويندفع إلى الأمام بأي درجة من السرعة يشاء." علاوة على ذلك، فهو طويل العمر، وله خاصية لا تقتصر على تأجيل شيخوخته، واكتساب شباب جديد، بل تشمل أيضًا زيادة في حجمه وقوته؛ وعندما يملأ الحدّ المُحدّد لوجوده، يُستهلك نفسه، كما ذكر تاوت في الكتب المقدسة، ولذلك يُقبَل هذا الحيوان في الطقوس والأسرار المقدسة. يقول هورابولو، مُشيرًا إلى رمز الثعبان: "عندما أراد المصريون تمثيل الكون، رسموا ثعبانًا مُرقّطًا بقشور مُلوّنة، يلتهم ذيله، والقشور تُشير إلى نجوم الكون. هذا الحيوان ثقيلٌ للغاية، كالأرض، وزلقٌ للغاية كالماء، علاوةً على ذلك، يُزيل كل عام شيخوخته بجلده، كما هو الحال في الكون، حيث تُحدث الدورة السنوية تغييرًا مُماثلًا وتُجدّد، واستخدام جسده للغذاء يعني أن كل الأشياء، مهما كانت، والتي وُلدت بالعناية الإلهية في العالم، تخضع للفساد فيه مرةً أخرى." لا شيء أكيد أكثر من أن الثعبان، في حقبة سحيقة، كان يُنظر إليه بتبجيل كبير باعتباره أكثر المخلوقات الحية غموضًا. لم تُفهم عاداته فهمًا كاملًا، وقد مُنح، كما نلاحظ من الاقتباسات السابقة، صفاتٍ استثنائية. وكونه موضع خوف وإعجاب ودهشة، فليس من المستغرب أن يرتبط مبكرًا بخرافات الإنسان، ولكن كيف اكتسب هذه الهيمنة الشاملة التي يصعب فهمها؟

لعل ما من ظرف في التاريخ الطبيعي للثعبان أكثر إثارة للدهشة مما أشار إليه سانشونياثون، ألا وهو: تقشير جلده سنويًا، أو ما يُفترض أنه تجديد شبابه. ٤٠

"كما يلقي ثعبان عجوز سترته المتقشرة، أكاليل الزهور في الشمس، مرتديًا مجد شبابه، كذلك عندما استقال قالب ألكيدس الفاني، كبر أفضل جزء منه، ونما أكثر نقاءً." - أوفيد.

لعلّ هذا هو ما ربطه بفكرة التعاقب الأبدي للأشكال، والتكاثر والانحلال المستمر، وهي عملية افترض القدماء أنها مستمرة إلى الأبد في الطبيعة. ويتضح هذا المبدأ في فكرة تعاقب العصور التي سادت بين الإغريق، والتي تُقابل "اليوغ" عند الهندوس، و"الشمس" عند المكسيكيين الأصليين. ويتضح كذلك من خلال الانحلال والتجديد السنويين اللذين يظهران في تعاقب الفصول، والذي كان يُفترض أنه ناتج عن ازدياد وانحطاط المبدأ الفعال، الشمس.

أسرار أوزوريس وإيزيس وحورس في مصر؛ أتيس وسيبيل، في

فريجيا. سيريس وبروسربين، في إليوسيس؛ فينوس وأدونيس في

فينيقيا؛ بونا ديا، وبريابوس، في روما، كلها لا يمكن تفسيرها إلا بطريقة واحدة. جميعها عرضت وصوّرت، من خلال طقوس مهيبة ومؤثرة ورموز صوفية، ظواهر الطبيعة العظيمة، لا سيما تلك المرتبطة بخلق الأشياء واستمرار الحياة. تجدر الإشارة، في المجمل، إلى أن الثعبان كان يُقدّم بشكل أو بآخر، رمزًا دائمًا لطاقة الطبيعة المُنشّطة أو النشطة. في أسرار سيريس وبروسيربين، عُبّر عن السرّ العظيم المُبلّغ للمبتدئ بشكل غامض: Taurus Draconem genuit، et Taurum Draco؛ "ولد الثور ثعبانًا، والثعبان ثورًا". كان الثور، كما رأينا، رمزًا بارزًا للقوة المُولّدة، باخوس زاغروس، أو Tauriformis. لم تكن عقيدة التعاقب الأبدي للأشكال مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بعقيدة التجديد، أو الولادة الجديدة، التي كانت جزءًا من النظام القضيبي، والتي اعتُبرت في شكلٍ مميزٍ إلى حدٍّ ما في جميع الديانات البدائية تقريبًا. في الهندوستان، لا تزال هذه العقيدة تُطبّق بشكلٍ لا لبس فيه، من خلال طقوسٍ ذات جلالٍ وأهميةٍ بالغةٍ لأتباع الديانة الهندوسية. يقول ويلفورد: "لغرض التجديد، يُوجَّه صنع تمثال من الذهب الخالص لقوى الطبيعة الأنثوية على شكل امرأة أو بقرة. في هذا التمثال، يُحاط الشخص المراد تجديده، ثم يُسحب عبر القناة المعتادة. ولأن تمثالًا من الذهب الخالص، وبأبعاد مناسبة، سيكون باهظ الثمن، فيكفي صنع تمثال لليوني المقدس، الذي يمر من خلاله الشخص المراد تجديده. لقد رأينا الثعبان رمزًا للطاقة الإنتاجية، مرتبطًا بالبيضة رمزًا للعناصر السلبية في الطبيعة. ومع ذلك، لا تظهر البيضة إلا في كتب نشأة الكون السابقة. يقول فابر: "كما استُخدم الثعبان الذكر ليرمز إلى الأب العظيم، كذلك استُخدمت الثعبان الأنثى بنفس القدر لتجسيد الأم العظيمة. يمكن إثبات هذا الأسلوب من التمثيل بشهادة صريحة، وهو متوافق تمامًا مع تشبيه نظام الأساطير الوثنية بأكمله. وكما كان يُعبد الأبوان العظيمان تحت رموز هيروغليفية لثور وبقرة، وأسد ولبوة، إلخ، فكذلك كان يُعبدان تحت صورتين متشابهتين لأفعى ذكر وأنثى.

لاحظ كل باحث تقريبًا في خرافات البشر البدائية علاقة وثيقة، إن لم تكن هوية مطلقة، فيما يُميز عادةً بعبادة الشمس والقضيب والثعبان، إلا أن الأساس المنطقي لهذه الصلة نادرًا ما يُكتشف. إنها في الحقيقة جميعها أشكال لعبادة واحدة. "إذا (كما يبدو مؤكدًا) كانت الثلاثة متطابقة"، يلاحظ السيد أوبراين، "فأين المفاجأة في لقائنا؟ الشمس والقضيب والثعبان، الرموز المكونة لكل منها، تظهر مجتمعة، منقوشة على نفس الطاولة، ومجمعة على نفس العتب؟"

نعود مجددًا إلى أمريكا. الإله الرئيسي لـ كان الأزتك، التابع للوحدة العظيمة، تجسيدًا للطاقة الفعالة الخلاقة، تيزكاتيلوبوكا أو توناكاتليكواتل. وكان يُطلق عليه أيضًا توناكاتيوكتلي. ومثل براهما الهندوسي، وفانيس اليوناني، وفثا المصري، كان "خالق السماء والأرض"، و"الأب العظيم"، و"إله العناية الإلهية"، الذي يسكن السماء والأرض والهاوية، ويهتم بتدبير العالم. وللدلالة على هذه القوة التي لا تلين والشباب الأبدي، اتخذ شكل شاب. وكان رمزه السماوي توناتيو، أي الشمس. وكانت رفيقته أو زوجته سيواكواتل أو تونياسيوا، أي "الأم العظيمة" للآلهة والبشر.

42

تتحول بقية الآلهة والإلهات في البانثيون الأزتكي إلى تجسيدات معدلة لهاتين القوتين. وهكذا، لدينا أوميتوكتلي و أوميسيهواتل، الإله والإلهة المحبوبان اللذان يترأسان الفردوس السماوي، واللذان، وإن كان يُفترض عمومًا أنهما آلهة مستقلة، إلا أنهما، وفقًا للمخطوطة الفاتيكانية، أسماء أخرى للآلهة المذكورة سابقًا. لدينا أيضًا شيوتيكتلي، "سيد السنة"، "إله النار"، الرمز الأرضي للمبدأ الفعال، وشوتشيتلي، "إلهة الأرض والذرة"؛ وتلالوك وسينتيوتل، أو شالتشيوكويجي، "إله وإلهة المياه"؛ وميكتلانتيكتلي وميكتلانتشيواتل، "إله وإلهة الموتى"؛ وميكسيتلي أو هويتزليبوتشلي الرهيب، الذي يُقابل شيفا الهندوسي، في شخصيته المُدمرة، وزوجته تيوياميكي، التي تشبه صورتها، مثل صورة كالي، زوجة شيفا، زُيّن برمزي الحياة والموت معًا. في الأساطير البسيطة والصابئية الأصيلة في بيرو، سبق أن أوضحنا وجود المبادئ البدائية التي يرمز إليها، الأول بالشمس والثاني بزوجته وأخته القمر. لا شك في أن الشمس كانت تُعتبر هنا رمزًا للأب الوسيط، أو الخالق الخالق. أُقيم عيد رايمي العظيم والمهيب اعترافًا بالشمس باعتبارها الأب الأعظم لكل الأشياء المرئية، التي بواسطتها كل الكائنات الحية.

الأشياء تُولَّد وتُستدام. كانت طقوس هذا العيد رمزية، وتشير أساسًا إلى الشمس كقوة الطبيعة الإنجابية والحافظة. في المكسيك، حيث تأثرت الديانة البدائية بطبيعة الناس الأكثر شراسة، نجد طقوس رايما تتخذ طابعًا دمويًا، والاعتراف بالتكاثر مرتبط بتكفير مبدأه المضاد، كما نرى في طقوس هويتزليبوتشلي في شخصية المدمر. وتنطبق الملاحظات نفسها على أمريكا الوسطى، التي تتوافق ديانتها وأساطيرها جوهريًا مع ديانة وأساطير شعوب أناهواك.

لقد ذكرنا أن الإله الرئيسي في آلهة الأزتك، التابع فقط للإله الواحد والمناظر للإله براهما الهندوسي، كان تيزكاتليبويا، أو توناكاتليكوالت، أو توناكاتيوكتلي. إذا رجعنا إلى أصل هذه الأسماء، فسنجد تأكيدًا وافيًا على صحة الاستنتاجات المستخلصة بالفعل من أساطير الشرق. وهكذا، جسّد توناكاتيوكتلي سيد الشمس، من توناتيوه، شمس، ناكايو أو كاتل، جسد أو شخص، وتوكتلي، سيد أو سيد. ومرة أخرى، توناكاتيوكواتل، شمس الأفعى، من تونكتياه وكاتل، كما ذُكر سابقًا، وكواتل، أفعى. وإذا اعتمدنا أصلًا آخر للأسماء (وهو ما يبدو أنه الأكثر قبولًا لدى الكُتّاب الأوائل)، فسنحصل على توناكاتيوكتلي، سيد جسدنا، من "إلي"، ضمير الملكية جمع، وناكاتل، جسد أو جسد، وتوكتلي، سيد أو سيد. وسنحصل أيضًا على توناكاتيوكواتل، ثعبان جسدنا، من "إلي"، وناكاتل، وكواتل، أفعى. وفقًا لساهاجيم، خاطب رئيس الكهنة المكسيكي تيزكاتليبوكا، بصفته إله الجنود، قائلاً: "نرجو أن تستقبل من يموتون في الحرب، يا أبانا الشمس، وأمنا الأرض، فأنت وحدك الحاكم". وتُخبرنا نفس المصادر أنه في صلاة الشكر التي ردها ملوك المكسيك إلى تيزكاتليبوكا

بمناسبة تتويجهم، اعتُبر الله إله النار، الذي تربطه به شيوتتيوكتلي، رب النبات، ورب النار تحديدًا، نفس الصلة التي تربط سويرا بالشخص الأول في الثالوث الهندوسي. يطلب الملك أن يتصرف "وفقًا لإرادة الإله القديم، أبو الآلهة، إله النار؛ الذي يقع مسكنه وسط المياه، محاطًا بالأسوار، ومحاطًا بالصخور كما لو كانت بالورود، واسمه شيوتيكتلي"، إلخ. غالبًا ما تُصوَّر توناكاتيكتلي، أو تيزكاتليبوكا، على النُصب التذكارية وفي اللوحات، محاطة بقرص الشمس. كان اسم الإلهة البدائية، زوجة تيزكاتليبوكا، سيهواكوهواتل أو توناكاتشيوا. كانت معروفة بأسماء أخرى، جميعها تشير إلى صفاتها. من الواضح أن أصل كلمة سيهواكوهواتل هو سيهوا، أي امرأة أو أنثى، وكوتل، أي ثعبان - أنثى ثعبان. وكلمة Tonacacihua هي الشمس المؤنثة، من Tonatiuh nacatl (كما سبق) وcihua، أي امرأة أو أنثى. وباتباع الاشتقاق الآخر، فهي امرأة من لحمنا.

يقول جاما، الذي يُقال إنه أذكى مؤلف تناول الآلهة المكسيكية بتفصيل، في إشارة إلى رموز الثعبان التي تنتمي إلى تمثال تيوياوميكي: "تشير هذه إلى إلهة أخرى تُدعىCihuacohuatl ، أو الثعبان المؤنث، والتي يعتقد المكسيكيون أنها أنجبت للنور، في ولادة واحدة، طفلين، ذكر وأنثى، يُشيرون إليهما إلى أصل البشرية؛

44

ولذلك يُطلق على التوائم بين المكسيكيين اسم Cohuatl أوCoatl ، وهو ما يُحرف في النطق العامي إلى ".Coateأيًا كان أصل الكلمة الذي نُرجعه إلى توناكا في هذه التركيبات، فإن الحقيقة الرئيسية المتمثلة في تسمية الأب الأكبر بالثعبان المذكر، والأم الكبرى بالثعبان الأنثى، تبقى كما هي. لم يُسمَّيا بهذا الشكل فحسب، بل وُجِّهَ سيناكواتل أو سيهواكوهواتل، بشكل عام، إن لم يكن دائمًا، في اللوحات، مصحوبًا بثعبان كبير أو ثعبان ذي رأس ريشي (توناكاتليكواتل "شمس الثعبان")، حيث لم يُخفق المفسرون الرهبان في اكتشاف تلميح واضح إلى حواء ومُغوي الجنة.

وبمتابعة موضوع ارتباط رمز الثعبان بالأساطير الأمريكية، نلاحظ أنه كان رمزًا بارزًا، ولم يغب عن أنظار أكثر المراقبين سطحيةً للآثار واللوحات الأسطورية في المكسيك وأمريكا الوسطى. وقد انبهر الإسبان الأوائل بشهرته بشكل خاص. يقول دوبايه: "كان الثعبان من أبرز التماثيل في الأساطير المكسيكية، ونجده منحوتًا بأشكال وأحجام مختلفة، ملتفًا، ممتدًا، حلزونيًا، أو متشابكًا بجمالٍ بديع، ومُمثلًا أحيانًا بالريش وزخارف أخرى. ولا شك أن هذه الأشكال المختلفة دلت على سماته المختلفة."

ويلاحظ محرر عمل كينغزبورو العظيم: "مثل أبو الهول المصري، كان للثعبان الغامض لدى المكسيكيين ألغازه، وكلاهما يتجاوز قدرتنا على حله". ومع ذلك، فهذه مسألة رأي.

نيون،

والاستنتاج هو ما سيختلف معه الكثيرون بشدة.

في كل أسطورة بدائية تقريبًا، لا نجد فقط أبًا وأمًا عظيمين، ممثلين للمبادئ المتبادلة، ووحدة خنثى عظيمة ينبع منها الأول ويتحدان فيها، بل نجد أيضًا شخصية نافعة، تشارك في الطبيعة الإلهية والبشرية، وهو المعلم العظيم للبشر، الذي يعلمهم الدين والتنظيم المدني والفنون، والذي، بعد حياة من النفع المثالي، يختفي

في ظروف غامضة، تاركًا شعبه منبهرًا بأعلى درجات الاحترام لمؤسساته وأعمق تقدير لذكراه. هذا نصف الإله، الذي غالبًا ما تُمنح له الأوسمة الإلهية بعد انسحابه من الأرض، هو عادةً ابن الشمس، أو الخالق الديميورجي، الأب العظيم، الذي يقف على رأس الآلهة البدائية ويخضع فقط للوحدة العليا؛ وُلِد من أمٍّ أرضية، عذراء، وغالبًا ما تكون عذراء للشمس، تحمل بطريقة غامضة، وبعد أن تلد ابنها نصف الإله، تُرفع هي نفسها أحيانًا إلى مرتبة الإلهة. في الأساطير الأكثر دقةً ومنهجيةً، يظهر بوضوح كتجسيد للأب الأعظم، ويشارك في صفاته، وممثله الأرضي، والوسيط بينه وبين الإنسان. يظهر على هيئة بوذا في الهند؛ وفوهي في الصين؛ وشاكا في التبت؛ وزرادشت في بلاد فارس؛ وأوزوريس في مصر؛ وتوت في فينيقيا؛ وهيرميس أو كادموس في اليونان؛ ورومولوس في روما؛ وأودين في الدول الإسكندنافية؛ وفي كل حالة، يُعتبر المعلم الأعظم للبشر، ومؤسس الدين.

في الأنظمة الأسطورية لأمريكا، لم يكن هذا الإله شبه الوسيط أقل وضوحًا من أنظمة العالم القديم؛ في الواقع، بما أن هذه الأنظمة كانت أقل تعقيدًا لأنها أقل تعديلًا من الأشكال الأصلية أو البدائية، فإن المعلم العظيم يظهر هنا بمزيد من التميز. بين القبائل المتوحشة، كان أصله وشخصيته، لأسباب واضحة، غامضين للغاية؛ لكنه احتل مكانة واضحة بين الأمم الأكثر تقدمًا.

كان يُطلق عليه بين شعوب الأناهواك اسم كيتزالكواتل (الأفعى ذات الريش)، وكان يحظى بأعلى درجات التبجيل. كانت مهرجاناته من أجمل ما يكون في السنة. ويُقال إنه كُرِّس له معبد تشولولا العظيم. فيما يلي سيرته الذاتية، المأخوذة من مصادر مختلفة: أرسل إله "درب التبانة" - أي إله السماء - الإله الرئيسي في مجمع الآلهة الأزتكي، والأب الأعظم للآلهة والبشر، رسالة إلى عذراء من تولان، يخبرها أن إرادة الآلهة هي أن تحمل ابنًا، وهو ما فعلته دون أن تعرف أي رجل. كان هذا الابن كيتزالكواتل، الذي وُصف بأنه طويل القامة، ذو بشرة فاتحة، وجبهة مفتوحة، وعينين واسعتين، ولحية كثيفة. أصبح رئيس كهنة تولان، وأدخل عبادة الآلهة، ووضع قوانين تُظهر أعمق الحكمة، ونظم التقويم، وحافظ على أكثر الأخلاق صرامةً ومثاليةً في حياته. كان يكره القسوة، ويبغض الحرب، ويعلّم الناس زراعة التربة، واستخلاص المعادن من خاماتهم، والعديد من الأشياء الأخرى الضرورية لرفاهيتهم. في ظل إدارته الحكيمة، سادت سعادة واسعة بين الناس. نمت الذرة حتى أصبح سنبلة واحدة منها حمولة رجل؛ وكان القرع بطول جسم الإنسان؛ ولم يكن من الضروري صبغ القطن لأنه كان ينمو بجميع الألوان؛ وكانت جميع الفواكه بوفرة هائلة وبحجم استثنائي؛ كما كانت هناك أعداد هائلة من الطيور الجميلة والعذبة المغردة. كان عهده العصر الذهبي لأناهواك. ومع ذلك، اختفى فجأة وفي ظروف غامضة، ولا يُعرف كيف اختفى. يقول البعض إنه مات على ظهر حصان البحر، ويقول آخرون إنه تاه باحثًا عن مملكة تلالابا الخيالية. تم تأليهه؛ وأُقيمت له المعابد، وزُيّن في جميع أنحاء أناهواك.

لذا، فإن كيتزالكواتل ليس سوى تجسيد لـ"شمس الأفعى" توناكاتل، وكما يدل اسمه، كان الثعبان ذو الريش رمزه المعترف به. وهكذا، رُمز إليه وفقًا لعادة (كما يقول غاما) سائدة في المكسيك، وهي الارتباط بممثلي إله أو إلهة، ورموز الآلهة الأخرى التي اشتُقت منها، أو التي تربطها بها صلة قرابة. تميزت معابده بتصميمها الدائري، وكان المعبد المخصص لعبادته في المكسيك، وفقًا لغوميرا، يُدخل إليه من باب "يشبه فم الثعبان، وهو أمرٌ يُخيف من يدخله، وخاصةً المسيحيين، إذ كان يُمثل لهم جحيمًا حقيقيًا". كان لدى المايا في

يوكاتان نصف إله يُطابق تمامًا كيتزالكواتل، إن لم يكن هو نفسه ولكن باسم مختلف - وهو تخمينٌ تدعمه العلاقة الواضحة بين الأساطير المكسيكية والماياوية. كان يُدعى إيتزامنا أو زامنا، وكان الابن الوحيد للإله الرئيسي، كينشانان. وصل من الشرق، وأرشد الناس إلى كل ما هو ضروري لحياتهم.

الرفاهية. يقول كوغولودو: "هو من اخترع الحروف التي يستخدمونها، والتي تُسمى باسمه، إيتزامنا، ويعبدونه إلهًا."

وكانت هناك شخصية أخرى مماثلة في يوكاتان، تُدعى كو كولكان أو كوكولكان، وأخرى في نيكاراغوا تُدعى ثيوتبيلاكي، ابن إلههم الرئيسي توماثويو، وأخرى في كولومبيا تحمل اسم بوتشيا. وتُقدم بيرو وغواتيمالا تقاليد مماثلة، وكذلك البرازيل، وشعوب عرق التاماناك، وفلوريدا، ومختلف القبائل المتوحشة في الغرب.

47

كانت الأفعى، كما نوضح في موضع آخر، رمزًا لكل من كيتزالكواتل وكو كولكان - وهي حقيقة تُعطي بعض الأهمية لقول كابريرا إن فوتان غواتيمالا، كما ذُكر آنفًا، كان يُمثل على أنه أفعى، أو من أصل أفعى.

يذكر توركيمادا أن صور هويتزليبوتشلي من المكسيك، وكيتزالكواتل، وتلالوك، كانت تُمثل كل منها بثعبان ذهبي، يحمل تلميحات رمزية مختلفة للتضحية. ويؤكد لنا أيضًا أن الثعابين غالبًا ما كانت تدخل في طقوس التضحية الرمزية للمكسيكيين، ويضرب المثال التالي: "من بين التضحيات العديدة التي قدمها هؤلاء الهنود، كانت هناك تضحية قدموها تكريمًا للجبال، بتشكيل ثعابين من الخشب أو جذور الأشجار، وربطوا عليها رؤوس ثعابين، وكذلك دمى من نفس النوع، أطلقوا عليها اسم إيكاتوتوين، حيث غطوا تماثيل الثعابين والأطفال الخياليين بالعجين، الذي أطلقوا عليه اسم تسوالي، المصنوع من بذور بليدوز، ووضعوها على دعائم خشبية منحوتة على شكل تلال أو جبال، وثبّتوها على قممها. كان هذا هو نوع القرابين التي قدموها للجبال والتلال العالية. كانت والدة هويتزليبوتشلي كاهنة تيزكاتليبوكا (مطهرة) المعبد، كما يقول غاما، يُدعى كواتلانتونا، كواتلكوي، أو كواتلكيو (أفعى المعبد أو امرأة الأفعى). كانت شديدة التفاني للآلهة، وفي أحد الأيام، بينما كانت تمشي في المعبد، رأت كرةً مصنوعة من ريش متعدد الألوان تهبط في الهواء. وضعتها في حزامها، وحملت على الفور، ثم وُلدت من ميكسيث أو هويتزليبوتشلي، مسلحًا بالكامل، يحمل رمحًا في إحدى يديه، ودرعًا في الأخرى، وشعارًا من الريش الأخضر على رأسه. أصبح، وفقًا للبعض، قائدهم في أناهواك، مرشدًا إياهم إلى المكان الذي بُنيت فيه المكسيك. كان تمثاله ضخمًا، ومُغطى بزخارف، لكل منها دلالة. صُوّر جالسًا على مقعد، تخرج من زواياه الأربع أربع أفاعٍ كبيرة. يقول غوميزا: "كان جسده مُرصّعًا باللآلئ، أحجارًا كريمة وذهبًا، وأطواقًا وسلاسل حول عنقه عشرة قلوب بشرية مصنوعة من ذهب. كان لديه أيضًا سيف مزيف، بعيون من زجاج، وفي رقبته رسم الموت، ولكل شيء اعتباراته ومعانيه. كان له، في شخصيته الإلهية كمدمر، أن تُقدم أعنف التضحيات في المكسيك. صُوّرت زوجته، تيوياوميكي (من تيو، مقدس أو إلهي؛ ياويوتل، حرب؛ وميكي، قتل) كشخصية تحمل أنفاس امرأة ممتلئة، مغلفة حرفيًا بالثعابين، ومزينة بالريش والأصداف، وأسنان ومخالب نمر. كان لديها قلادة مكونة من ست أيادٍ. حول خصرها حزام تُربط به رؤوس الموت. لا يزال أحد تماثيلها، وهو تمثال مروع، موجودًا في

مدينة المكسيك. إنه منحوت من كتلة صلبة من البازلت، ويبلغ ارتفاعه تسعة أقدام وعرضه خمسة أقدام ونصف. ليس من المستبعد أن تكون أم الثعبان... كان هويتزليبوتشتي تجسيدًا للأفعى العظيمة سيناكوواتل، زوجة توناكاتليكواتل، والد كيتزالكواتل. ومهما يكن، فمن الواضح وجود صلة أوثق بين الآلهة الرئيسية العديدة في المكسيك، مما يتضح من الروايات المربكة والهزيلة التي تُركت لنا عن أساطيرهم. في الواقع، رأينا أن للثالوث الهندوسي، براهما، فيشنو، وشيفا، نظيره تقريبًا في تيزكاتليبوكا، وتلالوك، وهويتزليبوتشتلي السماوي، الخالق، والحافظ، والمدمر، والمُعيد. في تصويرات سيفا أو ماهاديو، في شخصيته المدمر، يُصوَّر ملفوفًا بجلود النمر. يلتف حوله ثعبان مُقلَّع ويرفع رأسه فوق كتفه، وتشكل ثعابين ملتوية غطاء رأسه. في حالات أخرى، هو... يحمل رمحًا وسيفًا وثعبانًا وجمجمة، ويحيط بخصره حزام من الجماجم. من بين رموزه الثور ناندي (رمز القوة المولدة)، وكذلك اللينغهام. له كُرِّست أعنف التضحيات في الهند. دورغا، أو كالي (تجسيد لبهافين، إلهة الطبيعة والخصوبة) تُقابل تيشياوميكي المكسيكية، وتُمثل بطريقة مماثلة. إنها إلهة حرب، وأعمالها القتالية تمنحها مكانة مرموقة في البانثيون الهندوسي. بصفتها كالي، فإن ممثليها هم الأكثر فظاعة. رموز الدمار مشتركة بين الجميع؛ فهي متشابكة مع الأفاعي؛ ودائرة تُحيط برأسها زهورٌ؛ قلادةٌ من الجماجم؛ حزامٌ من أيادٍ بشريةٍ مبتورة؛ نمورٌ رابضةٌ عند قدميها - في الواقع، تُستدعى كلُّ تركيبةٍ من البشاعة والفظاعة لتصوير الشخصية المظلمة التي تُمثلها. إنها تُسرُّ بالتضحيات البشرية، وينصُّ الطقس على أنه قبل موت الضحية، يجب استحضارها على النحو التالي: "ليُردِّد المُضحِّي اسم كالي ثلاث مراتٍ أولاً: "هَلِّلي يا كالي! كالي! هَلِّلي يا ديفي! هَلِّلي يا إلهة الرعد! يا كالي ذات الصولجان الحديدي، هَلِّلي يا شرسة! اقطعي، اذبحي،

49

دمِّري! اربطي، أمِّني! اقطعي بالفأس، اشربي الدم، اذبحي، دمِّري!" يقول باترسون: "لها أربع أيادٍ، اثنتان منها تُستخدمان في التدمير المحيط بها، والأخرى لأعلى، والتي يبدو أنها تُبشّر بتجديد الطبيعة بخلق جديد. يقول كولمان: "في أعيادها، تتدفق معابدها بالدماء حرفيًا". ومع ذلك، وبصفتها دورغا، غالبًا ما تُصوَّر على أنها راعية الفضيلة، وتُشكِّل معاركها مع الشياطين الشريرة موضوعًا للعديد من القصائد الهندوسية. وهي، في هذا الجانب، تُمثِّل فالاس المُسلَّح. لقد رأينا أن خالق العالم، الأب الأعظم للأزتيك، توناكاتليكواتل أو تيزكاتليبوكا، وزوجته سيواكوهواتل، لم يُرمز إليهما فقط بالشمس والقمر، بل وُصِفا أيضًا على أنهما ثعبان ذكر وأنثى، وأن الأول في الصور الأسطورية كان يُمثَّل بثعبان برأس ريشي. كما رأينا أن المُمثِّل المُتجسِّد أو البشري لهذا الإله كيتزالكواتل، كان يُرمز إليه أيضًا بثعبان ريشي. كان هذا متوافقًا مع نظام الأزتك، الذين كانوا يمثلون رموزًا متشابهة، ويضفون على تجسيدات الآلهة الكبرى أو أحفادها رموزًا خاصة بهم.

ونظرًا لرسوخ هذه الحقائق، فإن العديد من آثار العصور القديمة الأمريكية، التي كان من الصعب تفسيرها لولا ذلك، أصبحت ذات أهمية بالغة. في المكسيك، للأسف، دُمرت أو طُمست السجلات الأثرية للسكان القدماء بوحشية شديدة لدرجة أنها لا تُقدم لنا الآن سوى القليل من المساعدة في أبحاثنا. لوحاتها القديمة، على الرغم من وجود بعضها الذي نجا من الدمار الشامل، لا تزال بعيدة المنال بشكل أساسي ولا يمكن الرجوع إليها تحديدًا بشأن هذه النقاط. ومع ذلك، نجد في أمريكا الوسطى العديد من البقايا التي، على الرغم من أنها في حالة خراب، أكثر اكتمالًا وإثارة للاهتمام من أي آثار أخرى نمتلك عنها أي معلومات مؤكدة.

أظهرت أبحاث واستكشافات وضع السادة ستيفنز وكاثروود العديد من هذه الآثار أمامنا في شكل يُمكّننا من تحديد معالمها الرئيسية. وتحتل تشيتشن إيتزا المرتبة الأولى بين مجموعات الآثار المثيرة للاهتمام التي اكتشفها هذان السادة، من حيث اتساعها وطابعها. ويُوصف أحد المباني التي تُشكل هذه المجموعة على النحو التالي: "المبنى المسمى كاستيلو هو أول ما رأيناه، وهو، من جميع النواحي، أضخم وأبرز مبنى شاهق فوق السهل. يبلغ طول التل الذي يقف عليه مائة وسبعة وتسعين قدمًا عند القاعدة، وهو مبني، على ما يبدو متين، بارتفاع خمسة وسبعين قدمًا. على الجانب الغربي يوجد درج عرضه سبعة وثلاثون قدمًا؛ وعلى الجانب الشمالي يوجد درج آخر عرضه أربعة وأربعون قدمًا، ويحتوي على تسعين درجة. على الأرض عند أسفل الدرج، يُشكّل رأسا ثعبان ضخمان (مُريشان) طولهما عشرة أقدام، بأفواه مفتوحة على مصراعيها وألسنتهما بارزة. لا شك أنهما كانا رمزًا لمعتقد ديني ما، ولا بد أنهما أثارا في أذهان المارة بهما مشاعر رهبة مهيبة. تبلغ مساحة المنصة على التل حوالي ستين قدمًا مربعًا، ويتوجها مبنى تبلغ أبعاده ثلاثة وأربعين قدمًا في تسعة وأربعين قدمًا. أبواب فردية تواجه الشرق والجنوب والغرب، مزينة بأعمدة ضخمة من خشب الزابوتي، مغطاة بنقوش متقنة، وعتباتها مزينة بأشكال منحوتة. التمثال مهترئ للغاية، لكن غطاء الرأس المصنوع من الريش وأجزاء من الملابس الفاخرة لا تزال باقية. الوجه محفوظ جيدًا، وله مظهر مهيب. جميع عضادات الأبواب الأخرى مزينة بمنحوتات ذات طابع عام مماثل، وتفتح جميعها على ممر بعرض ستة أقدام، يمتد حول ثلاثة جوانب من المبنى. زُيّن الجزء الداخلي من هذا المبنى بنقوش دقيقة للغاية، لكنها مُحيت.

"تتضح قدسية هذا البناء الرائع للوهلة الأولى، ومن الواضح أيضًا أن لهذه المنحوتات المختلفة دلالة ما. يُذكرنا المدخل بين رأسي الثعبانين العملاقين فورًا بوصف غوميرا لمدخل معبد كيتزالكواتل في المكسيك، الذي كان "يشبه فم الثعبان، وكان أمرًا مخيفًا لمن يدخله"."

يبدو أن كون هذه الرؤوس مُغطاة بالريش يربط هذا المعبد بعبادة ذلك الإله. ولكن في الأشكال المنحوتة على عضادات المداخل، والتي، كما يقول السيد ستيب، كما لاحظ الدجاج، كانت ذات طابع عام واحد في جميع أنحائه، لدينا دليل إضافي على أن هذا الهيكل كان مخصصًا لإله ثعبان. ولنتذكر أن الشخصية الجليلة الممثلة هناك كانت برفقة ثعبان ريشي، ثنياته مصفوفة برشاقة خلف التمثال، وذيله مميز بخشخشة الأفعى الجرسية - العلامة المميزة للثعبان الضخم في القارة، سواءً كان ممثلاً في نقوش التلال أو في منحوتات أمريكا الوسطى. لذا، يمكننا أن نستنتج بشكل معقول أن هذا المعبد كان مقدسًا للكيتزالكواتل اللطيف، أو لشخصية تُقابله، والذي كان ثعبانه الرمزي يحرس الصعود إلى القمة، ونُحتت تماثيله المهيبة على بواباته. يدعم هذا الاستنتاج أن معابد كيتزالكواتل في اللوحات المكسيكية تُصوَّر بأفعى ملتفة حولها أو ترتفع فوقها، كما يتضح من مثال من مخطوطة بورغيانوس في كينغزبورو.

ولكن هذا ليس كل شيء. فقد سبق أن ذكرنا أنه بين الإيتزايين - "الرجال المقدسين" - مؤسسي تشيتشن إيتزا، ثم مايابان، كانت هناك شخصية، تتطابق في كثير من النواحي مع كيتزالكواتل، تُدعى كو كولكان أو كوكولكان. ويؤكد توركيمادا، الذي نقل عنه كوغولودو، أن هذا لم يكن سوى اسم آخر لكيتزالكواتل. ويتحدث كوغولودو نفسه عن كو كولكان بأنه "شخص كان قائدًا عظيمًا بينهم"، وعُبد فيما بعد كإله. ويذكر هيرارا أنه حكم تشيتشن إيتزا. أن الجميع اتفقوا على أنه جاء من الغرب، ولكن هناك اختلاف حول ما إذا

كان قد جاء قبل أو بعد أو مع الإيتزا. "لكن"، يضيف، "يُظهر اسم المبنى في تشيتشن إيتزا وأحداث ذلك البلد بعد وفاة اللوردات أن كوكولكان كان يحكم معهم. كان رجلاً حسن الخلق، لم يُعرف عنه أنه كان له زوجة أو أطفال، ورجل دولة عظيم، ولذلك كان يُنظر إليه كإله، فقد خطط لبناء مدينة أخرى يمكن فيها إدارة الأعمال. ولهذا الغرض، نزلوا في بقعة تبعد ثمانية فراسخ عن ميريدا، حيث بنوا سياجًا يبلغ محيطه حوالي ثُمن فرسخ، وهو جدار من الحجر الجاف ببوابتين فقط. بنوا معابد، وأطلقوا على أعظمها اسم كوكولكان. بالقرب من السياج كانت منازل كبار الرجال، الذين قسم كوكولكان الأرض بينهم، وعيّن لكل منهم مدنًا.

"كانت هذه المدينة تُسمى مايابان (علم المايا)، والمايا هي لغة البلاد. حكم كوكولكان بسلام وهدوء وبعدل عظيم لعدة سنوات، وبعد أن هيأ له مغادرته وأوصى بحسن سير الحكم الذي أُنشئ، عاد إلى المكسيك من حيث أتى، فأقام بعض الوقت في تشانبوتان، حيث أقام، تخليدًا لرحلته، مبنى في البحر لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا.

52

لدينا هنا تصريح صريح بأن المبنى الرئيسي في مايابان كان يُسمى كوكولكان؛ ومن لغة هيرارا، يُستنتج بلا شك أن المبنى الرئيسي في تشيتشن إيتزا كان يُسمى أيضًا بالاسم نفسه. هذه حقائق مثيرة للاهتمام للغاية، تُبين أن الشخصية التي تُمثلها "كاستيلو"، والتي حددناها بناءً على أدلة أخرى على أنها شخصية تُقابل كيتزالكواتل، ليست سوى شخصية نصف الإله كو كولكان، أو كوكولكان، الذي كان المعبد مخصصًا لعبادة. مُكرّس، وسُمّي على اسمه.

إذا رجعنا إلى أصل اسم "كو كولكان"، فسنجد أدلةً إضافيةً وقاطعةً تدعم هذا الاستنتاج. "كو" في لغة المايا تعني "الله"، و"كان" تعني "ثعبان". لدينا إذًا "كو كولكان"، أي "الله" - "كول"، أي "ثعبان"، أو "إله الثعبان". لا يُدّعى أن ما تعنيه "كول" هو "ثعبان"، ولكن يُمكننا التخمين بشكلٍ معقول أنها كلمةٌ تُؤهل لـ"ثعبان". "كوكوم" تعني "ريشة"، ومن المُمكن أن تُغيّر نهايتها إلى "كوكول" بتحويلها إلى صفة. لذلك، قد يكون أصل الكلمة "كوكومكان" "ريشة-ثعبان"، أو "كوكولكان" "ثعبان مُريش". ومع ذلك، فإننا نعتمد على التفسير الأول، ونُخاطر دون تردد بالرأي القائل بأنه عندما تُتاح الفرصة للتحقق من قيمة "كول"، ستكون صحة استنتاجاتنا مُبرّرة تمامًا.

وهنا يُمكننا أيضًا أن نضيف أن أصل اسم كينشاهان، اسم الإله الرئيسي للمايا، والمناظر لتوناكاتل في المكسيك، هو نفسه أصل هذا الأخير. كين هو الشمس في لغة المايا، وشاهان، كما يعلم كل من يعرف النطق الإسباني جيدًا، ليس سوى اختلاف في قواعد الإملاء لكلمة كان أو كان، أي الأفعى. كين شاهان، أو كينكان، أو كينكان، هو بالتالي أفعى الشمس.

استندت ملاحظة أن كيتزالكواتل قد يُعتبر تجسيدًا لتيزكاتليبوكا، أو توناكاتلكواتل، وهو بوذا الهندوسي، إلى التوافق في أصلهما وشخصيتهما وتعاليمهما، ولكن هناك بعض التوافقات اللافتة للنظر بين المعابد المخصصة إلى عبادة هذين المعلمَين العظيمَين - أو ربما نقول، بين الهياكل الدينية في أمريكا الوسطى والمكسيك وهندوستان وجزر الأرخبيل الهندي، التي تستحق الاهتمام.

من أعلى معبد تشيتشن إيتزا الشامخ، الذي وُصف للتو، رأى السيد ستيفانز، لأول مرة، مجموعات من الأعمدة أو الأحجار المنتصبة، والتي لاحظ أنها أثبتت عند الفحص أنها من بين أكثر البقايا روعةً ووضوحًا التي صادفها حتى الآن. وقفت في صفوف من ثلاثة وأربعة وخمسة صفوف متجاورة، واستمرت صفوف عديدة في نفس الاتجاه، ثم تغيرت مجتمعة ولحقت بصفوف أخرى. كانت منخفضة، لا يتجاوز ارتفاع أطولها ستة أقدام. سقط العديد منها، وفي بعض الأماكن كانت ممددة في صفوف، جميعها في نفس الاتجاه، كما لو أنها أُلقيت عمدًا. في بعض الحالات، امتدت إلى قواعد تلال كبيرة، عليها أطلال مبانٍ وشظايا كبيرة من المنحوتات، بينما تفرعت في حالات أخرى وانتهت فجأة. أحصيتُ ثلاثمائة وثمانين منها، وكان هناك الكثير غيرها؛ لكن الكثير منها كان مكسورًا ومتناثرًا بشكل غير منتظم لدرجة أنني توقفت عن إحصائها.

تقع تلك التي يمثلها السيد ستيفنز، في لوحته، على صلة مباشرة بالمعبد الموصوف أعلاه، وتحيط بمساحة تبلغ حوالي أربعمائة قدم مربع. في المجلد الثالث من "معاملات الجمعية الملكية الآسيوية"، يسرد الكابتن تشابمان، من الجيش البريطاني، المعابد المختلطة لمدينة أناراجابورا القديمة (الواقعة في قلب جزيرة سيلان). إن الطابع المميز لهذه الهياكل القديمة، والتشابه الواضح بينها وبين معابد أمريكا الوسطى، وخاصةً مع طائفة تشيتشن إيتزا، يبرر تناولها بتفصيل.

ووفقًا للسجلات المحلية، كانت أناراجابورا، لمدة ألف وثلاثمائة عام، المقر الرئيسي لدين البلاد ومقر إقامة ملوكها. وقد تزخر بالمباني الرائعة والمنحوتات والأعمال الفنية الأخرى، ولا تزال تحظى بتقديس كبير من أتباع بوذا، باعتبارها أقدس بقعة في الجزيرة. يقول الكابتن تشابمان: "في ذلك الوقت، لم يتبقَّ من المدينة سوى تسعة معابد؛ وضفتين واسعتين للغاية؛ وعدة معابد أصغر حجمًا في حالة خراب؛ ومجموعات من الأعمدة، وأجزاء من الجدران متناثرة على امتداد عدة أميال. ولا تزال المعابد التسعة تحظى بتبجيل كبير، ويزورها البوذيون من حين لآخر.

تتكون هذه المعابد، أولًا، من ساحة مسيّجة تضم الأشجار المقدسة المسماة "بوغاها"؛ والأعمدة الألف المسماة "لووا ماها بايا"؛ والتلال السبعة أو "داغوباس"، ولكل منها اسم مميز أطلقه عليها مؤسسها".

يُصنع معبد بو مالوا، المُقدّس لبوذا بشكل خاص، من الجرانيت، ويتألف من سلسلة من أربع مصاطب مستطيلة، مكسوة بالجرانيت، ترتفع عن بعضها البعض وتتناقص في الارتفاع والامتداد، وعليها تقع المذابح وأشجار "بوغاها" المقدسة، أو أشجار بوذا. يبلغ الارتفاع الإجمالي للمدرجات حوالي عشرين قدمًا، ويبلغ امتداد أكبرها ثلاثين خطوة في خمس عشرة خطوة. تُصعد هذه المدرجات عبر درجات. عند أسفل الدرجة الرئيسية، توجد ألواح من الجرانيت، موضوعة بشكل عمودي، نُحتت عليها أشكال ببراعة؛ وبينها حجر نصف دائري ذو قوالب بسيطة مُثبتة في الأرض. على الجانب الشرقي من المبنى، يبرز تمثال ضخم لبوذا. ويوجد هيكل آخر مشابه، ولكنه أصغر حجمًا، إلى الشرق قليلاً من الهيكل الموصوف أولًا. كلاهما محاط بجدار، يُحيط بمساحة طولها مائة وخمسة وعشرون خطوة وعرضها خمسة وسبعون خطوة، مزروعة داخلها مجموعة متنوعة من الأشجار العطرة. على بُعد بضع خطوات إلى الشرق من هذا السور، تقع أطلال "الألف عمود". كانت هذه تتكون في الأصل من 1600 عمود، مرتبة في شكل مربع. لا يزال الجزء الأكبر

منها قائمًا؛ تتكون هذه الأعمدة، مع بعض الاستثناءات، من قطعة واحدة من حجر النيس في حالتها الخام التي استُخرجت منها. يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر قدمًا عن سطح الأرض؛ اثنتي عشرة بوصة في ثمانية بوصات مربعة، وتفصل بينها مسافة أربعة أقدام تقريبًا؛ لكن العمودين في وسط الخط الخارجي يختلفان عن البقية في كونهما من الجرانيت الأزرق الصلب، وفي تشطيبهما الدقيق. قيل إن هذه الأعمدة كانت مغطاة بالجص (التشونام)، وبالتالي حُوّلت إلى أعمدة ذات أشكال ونسب محددة. هناك تقليد يُشير إلى وجود غرفة نحاسية في وسط هذه الساحة سابقًا، تحتوي على قطعة أثرية تحظى بتبجيل كبير. على بُعد خطوات قليلة من هذه الغرفة، كان هناك عمود واحد من حجر النيس في حالة خام، يتراوح ارتفاعه بين أربعة عشر وستة عشر قدمًا.

يلاحظ الكابتن تشابمان وجود هياكل، مصحوبة بمجموعات مماثلة من الأعمدة، على الساحل المقابل أو الساحل القاري. لكلٍّ من معابد راميسيرام، ومادورا، ومعبد سيرينغهام الشهير، "ألف عمود". في راميسيرام، تُرتَّب الأعمدة في صفوف متوازية من الأعمدة، وهذه الأعمدة منفصلة عن بعضها البعض.

بواسطة خزانات أو مساحات تشغلها مبانٍ بالطريقة التي أشار إليها السيد ستيفانز في تشيتشن إيتزا. بعض هذه الأعمدة منحوت؛ والبعض الآخر في حالته الخام أو مطلي بالجص. في مادورا، تُرتب الأعمدة في مربع من الخطوط المشعة بطريقة تسمح للشخص الموجود في المنتصف بالرؤية من خلاله في كل اتجاه.

يقع هذا المربع على مصطبة مرتفعة، والأعمدة خشنة ولا يتجاوز ارتفاعها ثمانية أقدام. في سيرينغهام، تُشكل الأعمدة أيضًا مربعًا.

تستحق الداجوبات، التي توجد في معبد بوذا و"الألف عمود" في أناراجابورا، الاهتمام، لأنها تتوافق في كثير من النواحي مع بعض الهياكل في تشيتشن. وهي ذات أبعاد مختلفة، وتتكون عمومًا من مصاطب مرتفعة أو منصات واسعة، محاطة بأكوام من التراب مكسوة بالطوب أو الحجر، وغالبًا ما تُتوّج بهياكل دائرية على شكل قبة. وعادةً ما تُحاط القاعدة بصفوف من الأعمدة. يتراوح ارتفاعها بين خمسين ومائة وخمسين قدمًا. أما الداجوبات، متوسطة الحجم، فتتخذ أحيانًا شكلًا يُقارب شكل الفقاعة، لكنها عمومًا تتخذ شكل الجرس. وتُشكل جزءًا من المعابد البوذية، دون استثناء تقريبًا. ونجد، في طبيعة هذه الأعمدة الفريدة وترتيبها بالنسبة لبعضها البعض والهياكل الهرمية التي ترتبط بها، تشابهًا مذهلًا بين أطلال تشيتشن إيتزا في أمريكا الوسطى، وأناراجابورا في سيلان - بين معابد بوذا ومعابد كيتزالكواتل، أو ما يُقابلها. أما أوجه التشابه الأخرى بين العمارة المقدسة في الهند وأمريكا الوسطى، فسنُؤجلها إلى وقت لاحق. ومع ذلك، لا يسعنا إلا أن نشير هنا إلى الهيكل الموجود في تشيتشن إيتزا، والذي يُطلق عليه اسم "كاراكول"، وذلك لتشابهه مع الداجوبات في سيلان، ولارتباطه بعبادة الإله الثعباني. يصفه السيد ستيفنز على النحو التالي: "شكله دائري، ويُعرف باسم كاراكول، أو الدرج الحلزوني، نظرًا لترتيبه الداخلي. يقع على أعلى شرفتين. يبلغ طول الشرفة السفلية من الأمام، من الشمال إلى الجنوب، مائتين وثلاثة وعشرين قدمًا، ولا تزال في حالة جيدة. يرتفع درج كبير، عرضه خمسة وأربعون قدمًا، ويتألف من عشرين درجة، إلى منصة هذه الشرفة. على جانبي الدرج، يُشكل ما يشبه الدرابزين، جسدان متشابكان لثعبانين عملاقين، عرضهما ثلاثة أقدام، لا تزال أجزاء منهما قائمة؛ وبين أنقاض الدرج رأس ضخم، كان ينتهي عند أسفل الدرجات من أحد جانبيه. يبلغ طول منصة الشرفة الثانية ثمانين قدمًا من الأمام وخمسة وخمسين قدمًا من العمق، ويمكن

الوصول إليها عن طريق درج آخر. عرضه اثنان وأربعون قدمًا، وله اثنتان وأربعون درجة. في وسط الدرجات، وبالقرب من جدار الشرفة، توجد بقايا قاعدة ارتفاعها ستة أقدام، ربما كان يقف عليها صنم في السابق. على المنصة، على بُعد خمسة عشر قدمًا من آخر درجة، يقف المبنى. يبلغ قطره اثنان وعشرون قدمًا، وله أربعة أبواب صغيرة تواجه النقاط الأساسية. فوق الكورنيش، ينحدر السقف ليشكل قمة. يبلغ ارتفاعه، بما في ذلك الشرفات، أقل بقليل من ستين قدمًا. تؤدي الأبواب إلى ممر دائري عرضه خمسة أقدام. يحتوي الجدار الداخلي على أربعة أبواب، أصغر من الأبواب الأخرى، وتقف في المنتصف بالنسبة لها. تؤدي هذه الأبواب إلى ممر دائري ثانٍ، عرضه أربعة أقدام، وفي المنتصف كتلة دائرية، يبدو أنها من الحجر الصلب، قطرها سبعة أقدام وست بوصات؛ ولكن في مكان واحد، على ارتفاع أحد عشر قدمًا من الأرض، كانت هناك فتحة مربعة صغيرة، حاولت فتحها ولكن دون جدوى. كان السقف كذلك متداعية لدرجة أنني لم أستطع اكتشاف ما يؤدي إليه هذا الفتح. كانت جدران كلا الممرين مُجصَّصة ومغطاة برسومات، وكلاهما مُغطى بقوس مثلث.

كما وجد السيد ستيفنز في مايابان، المدينة التي بناها، كما رأينا، كو كولكان، الحاكم العظيم ونصف إله تشيتشن إيتزا، مبنىً على شكل قبة يُشبه إلى حد كبير المبنى الموصوف هنا. وهو المبنى الرئيسي هنا، ويقف على تلة ارتفاعها ثلاثون قدمًا. يبلغ ارتفاع الجدران عشرة أقدام حتى قمة الكورنيش السفلي، وأربعة عشر قدمًا أخرى حتى قمة الكورنيش العلوي. وله مدخل واحد باتجاه الغرب. يبلغ سمك الجدار الخارجي خمسة أقدام، ويوجد داخله ممر بعرض ثلاثة أقدام، يُحيط بكتلة أسطوانية صلبة من الحجر، سمكها تسعة أقدام. تحتوي الجدران على أربع أو خمس طبقات من الجص، ومغطاة ببقايا لوحات، تظهر فيها الألوان الأحمر والأصفر والأزرق والأبيض بوضوح. إلى الجنوب الغربي من المبنى، كان هناك صفّان من الأعمدة، يفصل بينهما ثمانية أقدام، مع أنه من المحتمل وجود المزيد من البقايا المحيطة، وبإزالة الأشجار، يمكن العثور على أخرى. كان قطرها قدمين ونصف. لا نعلم هذه النقطة، ولكن يُفترض أن الأعمدة كانت مرتبةً.

57

ومن بين أطلال تشيتشن، لا يوجد ما هو أكثر روعة من تلك التي يُطلق عليها السكان الأصليون "إجكليسيا" أو الكنيسة. وصفها السيد ستيفنز بأنها تتكون من "جدارين ضخمين متوازيين، طول كل منهما مائتان وخمسة وسبعون قدمًا، وسمكه ثلاثون قدمًا، ويفصل بينهما مائة وعشرون قدمًا. على بُعد مائة قدم من الطرف الشمالي، في مواجهة المساحة بين الجدارين، يقف على شرفة مبنى طوله خمسة وثلاثون قدمًا، يحتوي على غرفة واحدة، واجهتها منحوتة، وترتفع بين الأنقاض بقايا عمودين مزخرفين بإتقان، والجدار الداخلي بأكمله مكشوف للرؤية، مغطى من الأعلى إلى الأسفل بأشكال منحوتة بارزة مهترئة وباهتة. وفي الطرف الجنوبي أيضًا، على بُعد مائة قدم في نفس الموقع، يوجد مبنى آخر طوله واحد وثمانون قدمًا، وهو في حالة خراب، ولكنه يعرض أيضًا بقايا هذا العمود المنحوتة بغنى. في وسط الجدران الحجرية الكبيرة، متقابلين تمامًا، وعلى ارتفاع ثلاثين قدمًا عن الأرض، توجد حلقتان حجريتان ضخمتان، قطرهما أربعة أقدام وارتفاع قدم واحد. سُمكها بوصة واحدة، وقطر الحفرة قدم وسبع بوصات. على الحافة والحدود، نُحت ثعبانان متشابكان؛ أحدهما برأس ريشي والآخر ليس كذلك. هل يُمكن اعتبارهما إشارة إلى إله الثعبان وإلهة

الثعبان في أساطير الأزتك؟ يميل السيد ستيفنز إلى اعتبار الهيكل الفريد الموصوف هنا بأنه صالة ألعاب رياضية أو ملعب تنس، ويدعم رأيه باقتباس من هيرارا. يبدو للآخرين أنه من الأرجح بكثير أن يكون لهذا المبنى، مع المباني الأخرى في المجموعة، أصل مقدس حصريًا. مهما يكن من أمر، فإن الثعابين المتشابكة رمزية بوضوح، بقدر ما نجدها في أماكن أخرى، في مكان أكثر وضوحًا، وتحتل المرتبة الأولى بين الأشكال الرمزية المنحوتة على معابد السكان الأصليين. يتصل مباشرةً بهذا البناء الفريد، ويشكل جزءًا من الجدار الشرقي، مبنى يُعد من أكثر المباني التي زارها السيد ستيفنز إثارة للاهتمام من نواحٍ عديدة، ومن المؤسف أنه لم يقدم لنا وصفًا أكثر شمولًا له. ولا يتطلب الأمر جهدًا خارقًا من الخيال لاكتشاف السجلات المصورة لتعاليم الإله كو كولكان، الذي علّم الناس الفنون، وعلمهم الدين، وأسس الحكم، في المنحوتات واللوحات التي زُيّنت به. هناك مواكب مُصوّرة لشخصيات مُزينة بالزخارف، تحمل أسلحة. يقول السيد ستيفنز: "إحدى الغرف الداخلية مغطاة، من الأرضية إلى السقف المقوس، برسومات تُصوّر، بألوان زاهية وحيوية، شخصيات بشرية، ومعارك، وخيول، وقوارب، وأشجار، ومشاهد متنوعة من الحياة المنزلية". تتطابق هذه الرسومات إلى حد كبير مع الرسوم على جدران المعابد البوذية القديمة في جاوة، والتي وصفها السيد كروفورد بأنها مغطاة بتصاميم "مجموعة كبيرة ومتنوعة من المواضيع، مثل المواكب، والجمهور، والعبادة الدينية، والمعارك، والصيد، والمشاهد البحرية، وغيرها."

من بين أطلال أوكسمال، مبنى يشبه إلى حد كبير كنيسة تشيتشن. يتكون من جدارين حجريين ضخمين، طولهما مائة وثمانية وعشرون قدمًا، وسمكهما ثلاثون قدمًا، ويفصل بينهما سبعون قدمًا. وبقدر ما أمكن رؤيته، فإنهما متماثلان تمامًا في التصميم والزخرفة. جوانبهما المتقابلة مزينة بالمنحوتات، وعلى كليهما بقايا ثعابين ضخمة متشابكة تمتد على طول الجدران. في وسط كل واجهة، كما في تشيتشن، كانت هناك بقايا حلقة حجرية كبيرة، كانت قد انكسرت وربما دُمرت. لذا، يبدو أن رمز الثعابين المتشابكة كان دلالة على الأغراض التي كُرِّست لها هذه الأبنية. ويُعد تدمير هذه الأحجار دليلاً آخر على طابعها الديني؛ إذ لطالما وجّه الغزاة حماسهم التدميري ضد تلك الآثار، أو أجزاء منها، التي كان الهنود يُجلّونها ويُقدِّرونها بشدة، والتي اعتُبرت الأكثر ارتباطًا بخرافاتهم.

على بُعد مائتي قدم جنوب هذا المبنى، يقع مبنى آخر كبير ومهيب، يُسمى "كاسا دي لاس مونخاس"، أي دار الراهبات. يقع على أعلى المدرجات، ويمكن الوصول إليه عبر درج. شكله رباعي الزوايا، وفي وسطه فناء. أبعاده مئتان وأربعة عشر × مئتان وثمانية وخمسون. يقول السيد ستيفنز: "بمرورنا عبر البوابة المقوسة، ندخل إلى هذه الساحة الفخمة، ذات الواجهات الأربع الكبيرة المطلة عليها، كل منها مزخرفة من طرف إلى آخر بأغنى وأكثر النقوش تفصيلاً المعروفة في فن البنائين. الواجهة على اليسار هي الأكثر ثراءً في الزخارف، لكنها في حالة خراب شديد. يبلغ طولها مائة وستين قدمًا، وتتميز بثعبانين ضخمين متشابكين، يمران عبرها ويحيطان بما يقرب من جميع الزخارف مكتملة، وذيل أحد الأفعى مرفوع تقريبًا فوق رأس الآخر، وعليه زخرفة تشبه عمامة ذات ريش. توجد علامات على طرف الذيل، ربما كانت تُمثل الأفعى الجرسية التي تكثر في البلاد. الأفعى السفلية لها فكاها الوحشيان مفتوحان على مصراعيهما، وفي داخلها رأس بشري، وجهه واضح للعيان في الحجر. يُقال إن رأس وذيل الأفعى في الطرف الجنوبي للواجهة كانا مطابقين لتلك الموجودة في الشمال، وعندما اكتمل البناء بالكامل، في عام ١٨٣٦، شوهدت الأفاعي تُحيط بكل زخرفة في المبنى. أجسام الأفاعي مغطاة بالريش. تُقدم أطلالها فكرةً واضحةً عن المباني

الكبيرة والمتينة المصنوعة من الجير والحجر، والتي رآها برنال دياز في كامبيتشي، مع صور ثعابين وأصنام مرسومة على جدرانها. يذكر السيد نورمان أن رؤوس الثعابين كانت مزينة بريش، وأن ذيولها تُظهر غرابة الأفعى الجرسية. الواجهة الشرقية، المقابلة للواجهة الموصوفة للتو، أقل تفصيلاً، لكنها أكثر ذوقًا في الزخرفة. فوق كل مدخل توجد زخرفة تُمثّل الشمس. في كل موضع، يوجد وجه في المنتصف، بلسان بارز، يعلوه غطاء رأس متقن؛ بين القضبان توجد أيضًا مجموعة من الزخارف المعينية الشكل، حيث تظهر بقايا الطلاء الأحمر بوضوح، وفي كل طرف رأس ثعبان وفمه مفتوح. الزخرفة فوق المدخل الرئيسي أكثر تعقيدًا ودقة، ومن ذلك ما هو ملحوظ أسلوبٌ مميزٌ يُميّز أعلى جهود البناة.

يُرجّح أن يكون الشكل المركزي، بلسانه البارز، هو شكل الشمس، ويتطابق تصميمه عمومًا مع الشكل المركزي المنحوت على حجر التقويم الكبير في المكسيك، ومع ذلك الذي وجده السيد ستيفنز على جدران المنزل رقم 3 في بالينكي، حيث يُصوّر كموضوعٍ للإعجاب. كان بروز اللسان، لدى الأزتيك، يدلّ على القدرة على الكلام، ويدلّ على الحياة أو الوجود. أما لدى الشعوب السكلافونية، فقد عبّرت عن فكرة الحيوية من خلال القدرة على الأكل، كما هو الحال من خلال التنفس فيما بيننا، والمشي بين هنود سلالة ألغونكوين.

على الرغم من أن أمريكا الوسطى كانت مأهولةً بشعوبٍ مستقلةٍ عن شعوب المكسيك نفسها، إلا أن بعضها (مثل تلك التي تسكن ساحل المحيط الهادئ، جنوبًا حتى نيكاراغوا) تنحدر منها مباشرةً، وكانت جميعها تشترك في سماتٍ بارزة. كانت لغاتهم مختلفةً بشكلٍ عام، لكنها متقاربة؛ كانت العمارة متشابهة في جوهرها؛ ولدينا كل الأسباب للاعتقاد بأن دينهم لم يكن مختلفًا اختلافًا كبيرًا، مع أن دين الجنوب كان بلا شك أقل ضراوة في طابعه، ولم يتشوه كثيرًا بفعل التضحيات البشرية.

لذا، يمكننا أن نبحث بثقة تامة عن مفاهيم أسطورية مشتركة، خاصةً عندما نكون على يقين من أن دين القارة، مهما طرأ عليه من تعديلات، هو نفسه في جوهره؛ وخاصةً عندما نعلم أنه مهما كانت الاختلافات التي قد تكون وُجدت بين مختلف دول المكسيك وأمريكا الوسطى، فإن عناصر دينهم مستمدة من أصل توتيكي مشترك.

## الفصل السادس. معبد مونتيزوما المكسيكي - رمز الثعبان في المكسيك - هرم تشولولا

تكثر في المكسيك آثار الأفعى، وقد لاحظها كل مسافر تقريبًا في ذلك البلد المثير للاهتمام. ويتجلى هذا الرمز بوضوح في اللوحات القديمة. يقول أكوستا: "بُني معبد المكسيك العظيم من أحجار ضخمة على شكل أفاعي مربوطة ببعضها، وسُميَّت الدائرة كواتيبانتلي، أي دائرة الأفاعي". ويخبرنا دوران أن هذا المعبد بُني خصيصًا من قِبل مونتيزوما الأول "لجميع الآلهة"، ولذلك سُمي كواتلان، أي حرفيًا "مكان الأفعى". كما أخبرنا أنه كان يضم معبدًا أو ضريحًا لتيزكاتليبوكا، وهويتزليبوتشتلي، وتلالوك، المعروف باسم كواتيوكالي، أي "معبد الأفعى". يقول برنال دياز، في روايته لمسيرة كورتيس إلى المكسيك: "وصلنا اليوم إلى مكان يُدعى تيراغوكو، أطلقنا عليه اسم مدينة الثعابين، نظرًا لتماثيل تلك الزواحف الضخمة التي وجدناها في معابدهم، والتي كانوا يعبدونها كآلهة."

لا يُمكن افتراض أن عبادة الثعابين المطلقة - وهي عبادة مُنحطة للزاحف نفسه، أو عبادة الوثنية، كما يُقال في بعض أجزاء أفريقيا - قد سادت في المكسيك. لم يدخل الثعبان في أنظمتهم الدينية إلا كرمز. ومع ذلك، ليس من المُستحيل، بل على العكس، من المُحتمل جدًا أن يكون هناك قدر من التبجيل الخرافي للزاحف نفسه. ووفقًا لبرنال دياز، كانت الأفاعي الجرسية الحية تُحفظ في معبد المكسيك العظيم كأشياء مُقدسة. يقول: "وعلاوة على ذلك، كانوا في ذلك البيت الملعون يُربون 62 أفاعٍ وثعابين سامة، لها شيء في ذيولها يُصدر صوت أجراس موريس، وهذه أسوأ أنواع الأفاعي. كانوا يُحفظون في مهود وبراميل، وفي أوانٍ فخارية، على ريش، وهناك كانوا يضعون بيضهم، ويرعون صغارهم، وكانوا يُطعمون بأجساد الأضاحي، وبلحم الكلاب."

يروي شارليفيه في كتابه "تاريخ باراغواي" أن "ألفاريز، في إحدى بعثاته إلى ذلك البلد، وجد مدينةً فيها برجٌ كبير أو معبدٌ، مسكنٌ لثعبانٍ وحشيٍّ اختاره السكان إلهًا، وأطعموه لحمًا بشريًا. كان سمكه كالثور، وطوله سبعة وعشرون قدمًا". اعتُبرت هذه الرواية ملفقةً إلى حد ما، مع أنه من المرجح أن عبادة الأفعى كانت موجودة بين بعض القبائل المتوحشة في أمريكا الجنوبية.

قيل: "تجدر الإشارة إلى أن دياز لم يكن ميالًا إلى التهاون مع ديانة المكسيكيين، أو أي شيء مرتبط بها، وأن تحيزاته لم تكن خالية من تأثيرها على لغته. ومع ذلك، يمكن اعتبار روايته موثوقة أساسًا."

يقدم السيد ماير، في كتابه "وصف المكسيك"، روايةً شيقةً عن هرم تشولولا الهندي القديم والاستثنائي، وهو بناء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكيتزالكواتل الذي تحدثنا عنه.

هذا أحد أبرز آثار السكان الأصليين في القارة، فرغم أنه بُني فقط من الطوب اللبن أو الطوب المجفف بالشمس، إلا أنه لا يزال يتمتع بميزة كافية تُدهش كل ناظر إليه من جرأة بناة الهنود.

لم يُحدد أحدٌ على وجه اليقين ما كان مُخصصًا له، سواءً كان قبرًا أم معبدًا، على الرغم من أن أذكى علماء الآثار ظلوا يُخمّنون ذلك منذ الغزو. في وسط سهل، أقام الهنود جبلًا. لا تزال قاعدته باقية لتعطينا أبعاده؛ ولكن ما كان ارتفاعه الأصلي؟ هل كان قبرًا لسيد جبار، أو أمير ذي سيادة؛ أم كان مكانًا للتضحية فحسب؟

قبل سنوات عديدة، عند شق طريق جديد باتجاه بويبلا من المكسيك، أصبح من الضروري عبور جزء من قاعدة هذا الهرم. كشفت أعمال التنقيب عن غرفة مربعة مبنية من الحجر، وسقفها مُدعّم بعوارض من خشب السرو. عُثر فيه على بعض تماثيل البازلت، وعدد من المزهريات المرسومة، وبقايا جثتين. لم يُعر المكتشفون هذه الآثار أي اهتمام، وهي مفقودة لدينا إلى الأبد.

عند الاقتراب من الهرم من الشرق، يبدو متكسرًا ومُغطى بالأشجار لدرجة يصعب معها تحديد أي شكل واضح.

ومع ذلك، من الغرب، يُمكن تكوين فكرة واضحة جدًا عن هذا النصب التذكاري الضخم وهو يرتفع بعظمة منفردة من وسط السهل الممتد. طريق مُعبّد جيدًا، شقّه الإسبان القدماء، يصعد من الزاوية الشمالية الغربية بدرجات مُتباعدة، مائلًا أولًا على الجانب الغربي إلى أعلى مصطبة، ثم يعود إلى الجانب نفسه حتى يُقابله درج شديد الانحدار يرتفع إلى مقدمة الكنيسة الصغيرة المُتوجة بقبة، والمُحاطة بقبر من خشب السرو، والمُخصصة لعذراء الشفاء. القمة مستوية تمامًا، ومحمية بسور، ومنه يمتد منظر خلاب من كل جانب على الوادي المستوي. مهما كان هذا البناء، فإن فكرة الوصول إلى ارتفاع دائم يلجأ إليه الناس للصلاة - أو حتى للاستعراض - لا تزال قائمة.

أو التسلية - كان مفهومًا رائعًا، ويمنح الرجال الذين شيدوا هذا الهرم الشامخ بصبر منذ قرون، احترام الأجيال القادمة.

لم يبقَ حتى الآن سوى أربعة طوابق من هرم تشولولا، ترتفع فوق بعضها البعض وتتصل بمدرجات. هذه الأحجار، كما ذُكر سابقًا، مصنوعة من طوب مجفف بالشمس، تتخللها طبقات متفرقة من الجص والحجر. يقول السيد ماير: "وهذا كل ما يجب أن يُروى أو يُوصف. مهما كان قديمًا، ومثيرًا للاهتمام، ومهما فُحص من قِبل علماء الآثار في جميع البلدان، فإن النتيجة كانت هي نفسها دائمًا.

يخبرك الهنود أنه كان مكانًا للدفن، ويرد عليك المكسيكيون إجابةً شائعةً تُعبّر عن الجهل في هذا البلد: من يعرف؟ من يدري؟ من يستطيع أن يُخبر؟" يقول البارون هومبولت: "هرم تشولولا يضاهي تمامًا ارتفاع هرم توناتيو يلكساكوال في تيوتيهواكان. وهو أعلى بثلاثة أمتار من هرم ميسيرينوس، أو ثالث الأهرامات المصرية العظيمة في مجموعة الجيزة. ومع ذلك، فإن قاعدته أكبر من قاعدة أي هرم اكتشفه الرحالة في العالم القديم حتى الآن، وهو ضعف ما يُعرف بهرم خوفو. أولئك الذين يرغبون في تكوين فكرة عن الكتلة الهائلة لهذا النصب التذكاري المكسيكي من خلال مقارنة الأشياء الأكثر شهرة لديهم، يمكنهم تخيل مربع أكبر بأربع مرات من مربع ساحة فاندوم في باريس، مغطى بطبقات من الطوب يرتفع إلى ضعف ارتفاع متحف اللوفر. يتخيل البعض أن المبنى بأكمله ليس اصطناعيًا، ولكن بقدر ما تم إجراء الاستكشافات، لا يوجد سبب للشك في أنه..." هو عمل فني بامتياز. في حالته الراهنة (ونحن نجهل ارتفاعه الأصلي المثالي)، تبلغ نسبته العمودية إلى قاعدته ثمانية إلى واحد، بينما في أهرامات الجيزة الثلاثة العظيمة، وُجد أن النسبة واحد وستة أعشار إلى واحد، وسبعة أعشار إلى واحد؛ أو ما يقرب من ثمانية إلى خمسة.

ألا يمكن أن تكون هذه قاعدة معبد عظيم دُمر قبل الفتح بوقت طويل، ولم يعد حتى هذا التقليد قائمًا بين الهنود المجاورين؟ في استمرار، يلاحظ هومبولت "أن سكان أناواك صمموا على ما يبدو هرم تشولولا

بنفس الارتفاع، وضعف قاعدة هرم تيوتيهواكان، وأن هرم أسيخيس، وهو أكبر هرم مصري معروف، يبلغ طول قاعدته 800 قدم، وهو يشبه هرم تشولولا المبني من الطوب. يبلغ ارتفاع كاتدرائية ستراسبورغ ثمانية أقدام، وصليب القديس بطرس في روما أقل بواحد وأربعين قدمًا من قمة هرم خوفو. توجد الأهرامات في جميع أنحاء المكسيك؛ في غابات بابانتلا على مسافة قصيرة فوق مستوى سطح البحر؛ في سهول تشولولا وتيوتيهواكان، على ارتفاعات تتجاوز ارتفاعات ممرات جبال الألب. في أبعد الدول، وفي المناخات الأكثر اختلافًا، يبدو أن الإنسان قد اعتمد نفس أسلوب البناء، ونفس الزخارف، نفس العادات، ووضع نفسه تحت حكم نفس المؤسسات السياسية".

هل هذه حجة؟ لقد طُرح سؤال: هل أن جميع البشر ينحدرون من سلالة واحدة، أم أن العقل البشري واحد في كل مكان، وبتأثره بمصالح أو ضرورات متشابهة، يصل دائمًا إلى نفس النتيجة، سواءً عند توجيه هرم أو سهم، أو عند وضع قانون أو مغرفة؟

يقول ماير: "مع أنني لا أثق في كل الجهود الخفية والمتلمسة لعلماء الآثار، إلا أنني سأقدم لكم مع ذلك بعض الرسومات والأساطير التي قد تفيد على الأقل في بناء تخمين حول الإله الذي بُني له هذا الهرم، ولإثبات، ربما، أنه كان يُقصد به أن يكون أساسًا لمعبد وليس غطاءً لقبر".

65

وهكذا، فإن تقليدًا سجله راهب دومينيكي زار تشولولا عام 1566، يرويه الرحالة المذكور سابقًا من عمله. قبل الطوفان العظيم الذي حدث بعد 4800 عام من إنشاء العالم، كانت بلاد أناواك مأهولة بعمالقة، هلكوا جميعًا في الفيضان أو تحولوا إلى أسماك، باستثناء سبعة فروا إلى الكهوف.

وعندما هدأت المياه، ذهب أحد العمالقة، ويُدعى زيلهوا، ولقبه "المهندس"، إلى تشولولا، حيث بنى تلًا صناعيًا على شكل هرم، تخليدًا لذكرى تلالوك التي كانت ملجأً له ولإخوته الستة. وأمر بصنع الطوب في مقاطعة تلالمانالكو، عند سفح سييرا سيكوتل، ولكي ينقله إلى تشولولا، وضع صفًا من الرجال يتناقلونه بين أيديهم. ورأى الآلهة، بغضب، صرحًا ستصل قمته إلى السحاب. استاءوا من محاولة زيلهوا الجريئة، فألقوا النار على الهرم. هلك عدد من العمال. توقف العمل، وكُرّس النصب التذكاري لاحقًا للإله كيتزالكواتل. وقد سبق أن قدمنا وصفًا لهذا الإله في هذه الصفحات. أما القصة الفريدة التالية المتعلقة بهذا الإله وبعض خدمات معبده، فتوجد في "التاريخ الطبيعي والأخلاقي لأكوستا".

الكتاب 5، الفصل ٣٠. كان في معبد كيتزالكواتل، في تشولولا، بلاطٌ فخمٌ يُقام فيه رقصاتٌ وتسليةٌ رائعةٌ بالألعاب والكوميديا، في يوم عيد هذا الصنم. ولهذا الغرض، وُضع في وسط هذا البلاط مسرحٌ مساحته ثلاثون قدمًا مربعًا، مُزينٌ ومُزخرفٌ بدقةٍ بالغة - والذي زيّنوه بالزهور ذلك اليوم - بكل ما في ذلك من فنٍّ وابتكار، مُحاطٌ بأقواسٍ من أنواعٍ مُختلفةٍ من الزهور والريش، وفي بعض الأماكن، كانت تُربط العديد من الطيور الصغيرة والأرانب وغيرها من الحيوانات الأليفة. بعد العشاء، اجتمع جميع الناس في هذا المكان، وقدّم الممثلون أنفسهم وقدّموا الكوميديا. قلّد بعضهم الصم والروماتيزم، والبعض الآخر العرج، والبعض الآخر العمي والمقعد الذين جاؤوا طلبًا للشفاء من الصنم. أجاب الصم بارتباك، وسعل الروماتيزم، والعرج توقفوا، يروون بؤسهم وأحزانهم، فأضحكوا الناس. وظهر آخرون على هيئة حيوانات صغيرة، بعضها بزي

القواقع، وبعضها بزي الضفادع، وبعضها بزي السحالي؛ ثم اجتمعوا وأخبروا عن وظائفهم، وكلٌّ منهم انصرف إلى مكانه، وعزف على مزامير صغيرة كان سماعها مُبهجًا. كما قاموا بتقليد الفراشات والطيور الصغيرة بألوان متنوعة، والتي كانت تُمثل الأطفال الذين أُرسلوا إلى المعبد للتعليم. ثم ذهبوا إلى غابة صغيرة، غُرست هناك لهذا الغرض، حيث استدرجهم كهنة المعبد بآلات موسيقية. وفي هذه الأثناء، ألقوا العديد من الخطب اللطيفة، بعضها في العرض، وبعضها في الدفاع، حيث استمتع المساعدون بها. بعد ذلك، صنعوا قناعًا أو مومياء مع جميع الشخصيات، وهكذا انتهى العيد. من هذه الروايات، نستنتج حقائق مهمة، منها أن كيتزالكواتل كان "إله الهواء"، وثانيًا، أنه كان يُصوَّر على هيئة "أفعى ريشية"، وثالثًا، أنه كان الإله الأعظم للتشولولانيين، ورابعًا، أنهم شيدوا تلة أقاموا عليها معبدًا لمجده، حيث كانوا يحتفلون بأعياده ببذخ وفخامة.

وإذا جمعنا كل هذه الأقوال، فهل من غير المعقول الاعتقاد بأن أهرامات تشولولا كانت قاعدة هذا المعبد، وأنه كان يُعبد هناك باعتباره روح الهواء العظيم - أو روح الفصول؛ الإله الذي أنتج خصوبة الأرض، ونظم الشمس والرياح والمطر، فنشر الخير على الأرض. وقد ساد الاعتقاد أيضًا بأن الثعبان قد يرمز إلى البرق، وأن سرعة الريش تُشير إلى إحدى سمات الهواء، وهي الأسرع والأكثر تدميرًا.

يقول السيد ماير: "كنت أرى باستمرار ثعابين، في مدينة مكسيكو، منحوتة على الحجر، وفي مختلف مجموعات الآثار"، ويورد رسومات للعديد من أهمها، ولا سيما واحدة منحوتة بمهارة فائقة عُثر عليها في فناء الجامعة.

كتب فاسكيز كورونادو، حاكم نيو غاليسيا، كما كانت تُسمى الأراضي الشمالية لإسبانيا آنذاك، إلى نائب الملك ميندوزا عام ١٥٣٩، بشأن المناطق المجهولة التي لا تزال تقع خلفه شمالًا. وقد استند روايته بشكل رئيسي إلى الرواية الأسطورية للراهب ماركو نيزا، ولا يُمكن الاعتماد عليها كليًا. في هذه الرسالة، يذكر أنه "كان في مقاطعة توبيرا قومٌ لهم أبراجٌ عظيمة ومعابدٌ مغطاةٌ بالقش، ذات نوافذ دائرية صغيرة، مليئةٌ بجماجم بشرية، وأمام المعبد خندقٌ دائريٌّ كبير، حافته

67

محاطٌ بثعبانٍ مصنوعٍ من معادن مختلفة، يُمسك ذيله في فمه، ويُضحى أمامه بالرجال."

قدّم دو بيه أمثلةً عديدةً على النحت الذي يُمثل الثعبان، والذي وجده في كتابه "استكشافات الآثار في المكسيك". عُثر على أحد النقوش بالقرب من مدينة تشوتشيميلكو القديمة، وهو يُمثل ثعبانًا ملفوفًا بشكل اصطناعي، منحوتًا من كتلة من الرخام السماقي. جسده الطويل متشابك برشاقة، تاركًا رأسه وذيله حرَّين. ثمة شيءٌ مُبهر في تنفيذ التمثال. رأسه مرتفع ومزخرفٌ بشكلٍ غريب، وفمه المفتوح يُظهر نابين طويلين مدبَّبين، ولسانه (طويلٌ بشكلٍ غير عادي) مشقوقٌ عند طرفه كمرساة، وجسمه مُقشَّرٌ بشكلٍ مُتقَشِّر، وذيله (المُغطَّى بدوائر) ينتهي بثلاث خشخيشات. كان الثعبان رمزًا شائعًا لدى الفنانين المكسيكيين. مرونة شكله تجعله قابلًا لتنوعٍ لا نهائيٍّ في المواضع، المنتظمة وغير المنتظمة؛ وقد استغلوا هذه الميزة، ونوَّعوا تمثيلاتهم له بلا حدود، ودون أن يُضفوا عليه أبدًا مظهرًا غير طبيعي.

بالقرب من كواكويتشولا، عثر دو بيه على تمثالٍ رائعٍ آخر للثعبان، منحوتٌ من البازلت الأسود، ومتشابكٌ لدرجة أن الفراغ داخل طيات جسمه شكّل جرنًا كبيرًا بما يكفي لاحتواء كميةٍ كبيرةٍ من الماء. كان جسم الزاحف ملتفًا بشكل حلزوني، وربما كان الرأس بمثابة مقبض لتحريكه. كان مزينًا بدوائر، وكان ذيله ذيل أفعى جرسية.

عُثر أيضًا في تيبياكا، في حيٍّ من المدينة يُدعى سانت مايكل تلايكسيجوي (يعني في اللغة المكسيكية تجويف الجبل)، على ثعبانٍ منحوتٍ من حجر السماق الأحمر. يتميز هذا الثعبان بأبعاده الكبيرة، ووضعيته الهادئة، ويلتف حول نفسه في دوائر حلزونية تاركًا فراغًا أو محورًا عرضيًا في المنتصف. رأسه، ذو التعبير العنيف، مُسلح بنابين طويلين حادين، ولسانه، ذو التعبير العنيف، مُسلح بنابين طويلين حادين، واللسان مزدوج مقسم طوليًا. سطح الجسم بأكمله مُزين أو مغطى بريش عريض وطويل، وينتهي ذيله بأربع خشخيشات. يبلغ طوله من الرأس إلى طرف الذيل حوالي عشرين قدمًا، ويتناقص سمكه تدريجيًا. يقول دو بيه: "كان هذا الزاحف ملكًا أو عملاقًا من نوعه، وفي العصور الوثنية كان إلهًا محترمًا للغاية تحت اسم كيتزالكواتل، أو الثعبان الريشي. إنه منحوت بإتقان، ولا تزال هناك علامات تشير إلى أنه طُلي باللون القرمزي."

لكن الثعبان الريشي الرمزي لم يكن حكرًا على المكسيك ويوكاتان. فقد صادفه سكوير، في كتابه "استكشاف نيكاراغوا"، عدة مرات. بالقرب من مدينة سانتياغو دي ماناغوا، عاصمة الجمهورية، الواقعة على ضفاف بحيرة ماناغوا أو ليون، وبالقرب من قمة التلال البركانية العالية التي تفصل المياه المتدفقة إلى المحيط الأطلسي عن تلك المتدفقة إلى المحيط الهادئ، توجد فوهة بركانية خامدة، مملوءة جزئيًا الآن بالماء، وتشكل بحيرة محيطها حوالي ميلين، تُسمى نيهابا. جوانب هذه الفوهة عبارة عن صخور عمودية يتراوح ارتفاعها بين خمسمائة وثمانمائة قدم. هناك نقطة واحدة فقط يُمكن النزول منها. تؤدي هذه النقطة إلى مساحة صغيرة، تشكلت من الصخور المتساقطة والحطام، مما يُتيح للمسافر موطئ قدم. يقف هنا، فيرى فوقه، على السطح الأملس للجرف، مجموعة متنوعة من الأشكال، رسمها السكان الأصليون، باللون الأحمر. أبرزها ثعبان مُريش ملفوف ومُزخرف. يبلغ قطره حوالي أربعة أقدام. على بعض الصخور الأخرى، شُكِّلت رسومات للثعبان، تتوافق تمامًا مع الرسوم الموجودة في مخطوطة دريسدن التي نسخها كينغزبورو، مؤكدةً بذلك تخمينات هومبولت وغيره من الباحثين بأن أصل هذه المخطوطة يعود إلى جنوب المكسيك. افترض السكان الأصليون الذين زاروها أن الشكل المُنسوخ يُمثل الشمس. قبل بضع سنوات، كانت أشكال كبيرة للشمس والقمر ظاهرة على المنحدرات، لكن الجزء الذي رُسمت عليه سقط بفعل زلزال عام ١٨٣٨ العظيم. ولا تزال أجزاء من الأشكال ظاهرة على الشظايا المتساقطة.

ومن الحقائق الغريبة أن العديد من قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية يكنّون احترامًا خرافيًا للأفاعي، وخاصةً الأفعى الجرسية. ورغم تجنبهم لها دائمًا، إلا أنهم لم يدمروها قط، "لئلا"، كما يقول بارترام، "تثير روح الزاحف أقاربها للانتقام."

ووفقًا لأدير، لم يكن هذا الخوف خاليًا من التبجيل.

ويذكر شارلفوا أن شعب ناتشيز وضع تمثالًا لأفعى جرسية، منحوتًا من الخشب، بين أشياء أخرى على مذبح معبدهم، وكانوا يُكرمونها تكريمًا كبيرًا. يروي هيكويلدر أن لينابي ليني كان يُطلق على الأفعى الجرسية لقب "الجد"، ولم يكن ليسمح بتدميرها بأي حال من الأحوال. ويذكر هيني أن الهنود حول بحيرة هورون كانوا يؤمنون بخرافة مماثلة، وكانوا يعتبرون الأفعى الجرسية "جدهم". ويذكر أيضًا حالات قُدّمت فيها قرابين من التبغ، وطُلبت رعاية أبويها للطرف الذي يُقدّم التضحية. ويذكر كارفر أيضًا حالة مماثلة من جانب أحد الهنود المينومينيين، الذي كان يحمل معه أفعى جرسية باستمرار، "معتبرًا إياها إلهًا، ومُطلقًا عليها اسم والده العظيم."

يمكن إرجاع جزء من التبجيل الذي كان يُنظر به إلى الزاحف في هذه الحالات إلى تلك الخرافة الشائعة بين القبائل المتوحشة، والتي كانت تُعتبر تحت تأثيرها كل ما هو مميز في الطبيعة دواءً أو سرًا، وبالتالي يستحق الاحترام. مع ذلك، يبدو أن هناك، ضمن كل ذلك، بقايا خرافة أوفيتية ذات طابع مختلف، تتجلى في الاستخدام الشائع للأفعى كرمز للقوى غير المادية، أو "المانيتو" أو الأرواح.

يذكر السيد جيمس، في مخطوطاته الموجودة لدى الجمعية التاريخية في نيويورك، أن "المينومينيين يترجمون كلمة مانيتو التي يستخدمها شعب تشيبويز إلى أهواهتوكي،" والتي تعني بشكل قاطع ثعبان.

ويتابع قائلاً: "سواء كانت الكلمة قد تشكلت في البداية كاسم لشيء مثير للدهشة أو الاشمئزاز، ثم انتقلت إلى كائنات روحية، أو ما إذا كان امتداد معناها قد اتخذ اتجاهًا معاكسًا، فمن الصعب تحديد ذلك". كما يؤكد بوسو أن سكان أركنساس كانوا يؤمنون بوجود روح عظيمة، يعبدونها على شكل ثعبان. وفي الشمال الغربي، كانت رمزًا للقوة الشريرة.

يمكننا أن نُقدّم بشكل مناسب تقليد الثعبان العظيم، وهو شائع حتى يومنا هذا بين شريحة كبيرة من هنود سلالة ألغونكوين. يُقدّم هذا التقليد بعض أوجه التشابه الغريبة مع العلاقات المجازية في العالم القديم. يُوضَع مانابوزو، المعلم العظيم لشعب ألغونكوين، دائمًا في عداء مع ثعبان عظيم، روح شريرة، تُقابل تقريبًا تايفون المصري، وكاليا الهندي، وميدجارد الإسكندنافي. كما يرتبط بمفاهيم ألغونكوين عن الطوفان؛ وكما يُوضَع تايفون في مواجهة أوزوريس أو أبولو، وكاليا مع سوريا أو الشمس، وميدجارد مع وودين أو أودين، فكذلك تربطه علاقة مماثلة بمانابوزو. الصراعات بين الاثنين متكررة؛ وعلى الرغم من أن الصراعات تكون أحيانًا طويلة ومُثيرة للشكوك، إلا أن مانابوزو عادةً ما ينجح في مواجهة خصمه. تضمنت إحدى هذه المواجهات تدمير الأرض بالماء، وإعادة إنتاجها بواسطة القويّ الكريم

70

مانابوزو. وقد روى كاه-جي-جا-جاه-بووه، زعيم قبيلة أوجيبواي، التقليد الذي تجسد فيه هذا الحدث العظيم. وقد سُجِّلت جميع تفاصيله الأساسية من خلال علامات الهنود المصورة البدائية، والمنتشرة في جميع أنحاء أراضي ألغونكوين.

في أحد الأيام، بينما كان مانابوزو عائدًا إلى نُزُله من رحلة طويلة، لم يرَ ابن عمه الشاب الذي كان يقيم معه، فنادى باسمه بصوت عالٍ، لكنه لم يتلقَّ أي رد. نظر حوله على الرمال باحثًا عن آثار قدميه، وهناك،

ولأول مرة، اكتشف أثر مِشكينبك، الأفعى. عندها علم أن ابن عمه قد وقع في قبضة عدوه اللدود. تسلّح، وسار على دربِه، فعبر النهر العظيم، وعبر الجبال والوديان إلى شواطئ البحيرة العميقة الكئيبة التي تُسمى الآن بحيرة مانيتو، أو بحيرة الأرواح، أو بحيرة الشياطين. قاده أثر مشكنبك إلى حافة الماء. في قاع هذه البحيرة كان مسكن الثعبان، وكان مليئًا بالأرواح الشريرة - أتباعه ورفاقه. كانت أشكالهم وحشية ومرعبة، لكن معظمهم، مثل سيدهم، كانوا يشبهون الثعابين. في وسط هذا التجمع المروع، كان مشكنبك نفسه، يلفّ مجلداته حول ابن عم مانابوزو التعيس. كان رأسه أحمر كالدم، وعيناه شرستان تتوهجان كالنار. كان جسده كله مغطى بقشور صلبة لامعة من كل لون وظل. نظر مانابوزو إلى أرواح الشر المتلوية، وتعهد بالانتقام العميق. أمر الغيوم بالاختفاء من السماء، والرياح بالسكون، والهواء بالركود فوق بحيرة المانيتوس، وأمر الشمس بأن تشرق عليها بكل ضراوتها؛ لأنه بذلك سعى إلى دفع عدوه للبحث عن ظلال الأشجار الباردة التي تنمو على ضفافها، حتى يتمكن من الانتقام منه.

في هذه الأثناء، أمسك مانابوزو بقوسه وسهامه، ووضع نفسه بالقرب من المكان الذي توقع أن يأتي إليه الثعبان ليستمتع بالظل. ثم نقل نفسه إلى جذع شجرة ذابل مكسور، حتى لا يكتشف أعداؤه وجوده.

سكنت الرياح، وأشرقت الشمس حارقة على بحيرة المانيتوس الشرير. شيئًا فشيئًا، هاجت المياه، وارتفعت الفقاعات إلى السطح، إذ اخترقت أشعة الشمس تلك الفرائس المرعبة في أعماقها. ازدادت الضجة، ورفعت أفعى رأسها عاليًا فوق مركز البحيرة، ونظرت حول الشواطئ. وفجأة، صعدت أفعى أخرى إلى السطح، فأنصتتا إلى وقع أقدام مانابوزو، لكنها لم تسمعه في أي مكان على وجه الأرض، فقالوا لبعضهم البعض: "مانابوزو نائم". ثم غاصوا مجددًا تحت الماء، الذي بدا وكأنه يُصدر هسيسًا وهو يغلق عليهم.

لم يمضِ وقت طويل حتى ازدادت بحيرة المانيتوس اضطرابًا، فقد غلت من أعماقها، وتلاطمت أمواجها الساخنة بعنف على الصخور على شواطئها. ازدادت الضجة، وسرعان ما ظهر مشيكينبك، الأفعى العظيمة، ببطء إلى السطح، واتجه نحو الشاطئ. توهج عرفه الأحمر بلونٍ أعمق، وكان انعكاس حراشفه اللامعة كتألقٍ ساطعٍ لغابةٍ مُغطاةٍ بالثلج تحت شمس صباح الشتاء. لحقت به الأرواح الشريرة، وكان عددها هائلاً لدرجة أنها غطت شواطئ البحيرة بجثثها النتنة. رأوا الجذع المكسور والمُتطاير الذي حوّل مانابوزو نفسه إليه، وظنّوا أنه قد يكون أحد أزيائه التنكرية، لأنهم عرفوا مكره، فاقترب أحدهم، ولفّ ذيله حوله، وحاول جرّه إلى أسفل. لكن مانابوزو صمد، وإن لم يستطع الامتناع عن الصراخ بصوتٍ عالٍ، لأن ذيل الوحش دغدغ جنبيه. لفّ الثعبان العظيم طياته الواسعة بين أشجار الغابة، وسعت البقية أيضًا إلى الظل، بينما تُرك أحدهم ليسمع وقع خطوات مانابوزو. عندما نام الجميع، سحب مانابوزو سهمًا من جعبته بصمت، ووضعه في قوسه، ووجهه نحوه.

هنا رأى قلبه ينبض على جانبي الثعبان العظيم. أطلقه، ومع عواءٍ هزّ الجبال وأرعب الوحوش في كهوفها، استيقظ الوحش، وتبعه رفاقه المرعبون، وهم يصدرون أصواتًا مختلطة من الغضب والرعب، ثم غاصوا مرة أخرى في البحيرة. وهناك صبّوا جام غضبهم على ابن عم مانابوزو العاجز، فمزقوا جسده إلى ألف قطعة، وارتفعت رئتاه الممزقتان إلى السطح، وغطّتاه بالبياض. وهذا هو مصدر الزبد على الماء.

عندما علم الثعبان العظيم أنه مصاب بجروح قاتلة، ازداد هو والأرواح الشريرة المحيطة به رعبًا بعشرة أضعاف بسبب غضبهم الشديد، وصعدوا ليغمروا مانابوزو. تصاعدت مياه البحيرة من أعماقها المظلمة، وبصوتٍ كصوت الرعود، تدحرجت بجنونٍ على مسارها، تحمل الصخور والأشجار أمامها بغضبٍ لا يُقاوم. على قمة الموجة الأولى، أسودَ كظلام منتصف الليل، ركبَ جسدُ ميشكينبك الجريح المتلوي، وتلألأت عيناه الحمراوان حوله، وهسهست أنفاسُ الحضنة الوحشية بشراسةٍ فوق مانابوزو المنسحب. ثم فكر مانابوزو في أطفاله الهنود، وركضَ عبر قراهم، وبصوتٍ مُنذِرٍ أمرهم بالفرار إلى الجبال، لأن الثعبان العظيم كان يُغرق الأرض بغضبه المُحتضر، لا يُبقي على أي كائنٍ حي. أمسك الهنود بأطفالهم، وبحثوا بجنونٍ عن الأمان حيث أمرهم. لكن مانابوزو واصل هروبه على طول سفوح التلال الغربية، ولجأ أخيرًا إلى جبلٍ عالٍ وراء بحيرة سوبيريور، متجهًا نحو الشمال. هناك وجد العديد من الرجال والحيوانات الذين فروا من الفيضان الذي غطى الوديان والسهول، وحتى أعلى التلال. ومع ذلك، استمرت المياه في الارتفاع، وسرعان ما غمرت جميع الجبال باستثناء الجبل الذي كان مانابوزو يقف عليه. ثم جمع الأخشاب، وصنع طوفًا، وجلس عليه الرجال والنساء والحيوانات التي كانت معه. وما إن فعلوا ذلك حتى انغلقت الفيضانات المتصاعدة على الجبل، وطفوا وحدهم على سطح المياه؛ وهكذا طفوا لأيام عديدة، فمات بعضهم، وحزن الباقون، وعاتبوا مانابوزو لأنه لم يُبدد المياه ويُجدد الأرض ليحيوا. ومع أنه كان يعلم أن عدوه اللدود قد مات بحلول ذلك الوقت، إلا أنه لم يكن بمقدور مانابوزو تجديد العالم إلا إذا كان بين يديه بعض التراب ليبدأ به. وشرح ذلك لمن كانوا معه، وقال إنه لو كان قليلًا، ولو بضع حبات من التراب، لكان بإمكانه تبديد المياه وتجديد العالم. ثم تطوّع القندس للذهاب إلى قاع البحر، وجلب بعض التراب، وصفّق الجميع لخطته. غاصت في الماء، وانتظروا طويلًا، وعندما عادت كانت ميتة؛ فتحوا يديها، لكنهما لم يكونا يحملان ترابًا.

"إذن"، قال ثعلب الماء، "سأبحث عن التراب!" وغاص السباح الجريء من الطوافة. غاب ثعلب الماء لفترة أطول من القندس، ولكن عندما عاد إلى السطح، كان هو الآخر ميتًا، ولم يكن بين مخالبه تراب. "من سيجد التراب؟" هتف جميع من بقوا على الطوافة: "الآن وقد مات القندس وثعلب الماء؟"، وغلب عليهم اليأس، مكررين: "من سيجد التراب؟". قال فأر المسك: "سأفعل"، واختفى سريعًا بين جذوع الطوافة. كان فأر المسك قد اختفى طويلًا، أطول بكثير من ثعلب الماء، وظنوا أنه لن يعود أبدًا، عندما نهض فجأةً قريبًا، لكنه كان ضعيفًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع الكلام، فسبح ببطء نحو الطوافة. وما إن صعد عليها حتى مات هو الآخر من شدة الجهد. فتحوا يديه الصغيرتين، وهناك، متشابكتين بإحكام بين أصابعه، وجدوا بضع حبات من التراب الطازج. جمعها مانابوزو بعناية وجففها في الشمس، ثم فركها حتى أصبحت مسحوقًا ناعمًا في راحتيه، ثم نهض، ونفخها في الماء. ما إن تم ذلك حتى بدأ الفيضان ينحسر، وسرعان ما ظهرت أشجار الجبال والتلال من الأعماق، وظهرت السهول والوديان، واختفت المياه من الأرض ولم تترك أثرًا سوى رواسب كثيفة، وهي الغبار الذي نفخه مانابوزو من الطوافة.

ثم وُجد أن مشكينبك، الثعبان العظيم، قد مات، وأن المانيتوس الشرير، رفاقه، قد عادوا إلى أعماق بحيرة الأرواح، التي لم يجرؤوا على الخروج منها خوفًا من مانابوزو. وامتنانًا للقندس وثعلب الماء وفأر المسك، قدس الهنود هذه الحيوانات إلى الأبد، وأصبحت إخوانهم، ولم يقتلوها أو يضايقوها قط، حتى أنعم عليهم دواء الغريب بنسيان أقاربهم، وحوّل قلوبهم إلى جحود. في تلال الغرب، عُثر على منحوتات مختلفة للثعبان، ومن بينها ما يلي: إنه يمثل أفعى خشخشة ملتفة، ومنحوت في حجر رملي مدمج بلون القرفة. يبلغ

طوله ست بوصات وربع بوصة، وعرضه واحد وثلاثة أثمان، وسمكه ربع بوصة. الصنعة دقيقة، والسمات المميزة للأفعى الجرسية مُمثلة بدقة؛ الرأس، للأسف، ليس كاملاً، ولكن ما تبقى منه يكفي لإثبات أنه كان يعلوه نوع من الريش يشبه ما يُمثل بوضوح في الآثار المنحوتة في الجنوب. عُثر عليه مغلفًا بعناية بصفائح نحاسية، وفي ظروف تُؤكد أنه كان موضع تقدير كبير، وربما موضع عبادة. ٧٤

على الرغم من أوجه التشابه اللافتة التي أُشير إليها في الديانات البدائية للعالمين القديم والجديد، والتطابقات اللافتة في أنظمتهما الرمزية، فإننا بالكاد نجد في أمريكا ذلك المزيج المميز الذي يشغل مكانًا بارزًا في نشأة الكون والأساطير المبكرة في الشرق، والذي يُشكل أساس هذه الأبحاث، ألا وهو الرمز المركب للثعبان والبيضة. ولا بد من الاعتراف بأنه في الروايات القليلة المقتضبة وغير الكاملة التي لدينا عن مفاهيم نشأة الكون التي تتبناها الأمم الأمريكية، لا نجد أي إشارة واضحة إليها. فالرمزية مُرهفة ومُجردة للغاية بحيث لا يمكن للقبائل الرحّلة المتوحشة تبنيها، ولا يمكننا البحث عنها، إن وُجدت، إلا بين الأمم الأكثر تحضرًا في الجزء الأوسط من القارة، حيث يُصنف الدين والأساطير كنظام مفهوم. وهنا لا بد لنا من أن نأسف وندين فورًا الحماسة الهمجية للغزاة الإسبان، الذين لم يكتفوا بتدمير السجلات المصورة وقلب وتشويه الآثار البدائية لتلك الأمم العريقة، بل شوهوا التقاليد القليلة التي سجلوها، ليقدموا دعمًا ظاهريًا لخرافات دينهم، وأضفوا على الطقوس المقدسة للسكان الأصليين سمات مروعة ومقززة، ليقدموا، بين من يشاطرهم الرأي، اعتذارًا عن قسوتهم الوحشية. لم يقتصر الأمر على إصدار أول أسقف للمكسيك، زوماناغا سيئ السمعة، أوامر بحرق جميع المخطوطات المكسيكية التي أمكن الحصول عليها، بل مُنع الجميع من تسجيل تقاليد السكان القدماء. لذلك، وحتى الآن، لم نتوصل إلى سرد كامل ومتسق لمعتقدات ومفاهيم تلك الأمم، التي يمكن الرجوع إليها في مثل هذه الأبحاث، إلا إلى شظايا منفصلة ومبعثرة، أنقذتها أيدي لاحقة من الدمار الشامل. في ظل هذه الظروف، لا يمكننا أن نتوقع العثور على أدلة موازية على وجود مفاهيم محددة؛ أي أننا قد نجد بعض التمثيلات الرمزية الواضحة التي تشير إلى نشأة الكون، أو الأساطير، أو ديانة السكان الأوائل، ومع ذلك نبحث عبثًا في التقاليد الشحيحة والمشوهة والسجلات المصورة المشوهة القليلة التي تُركت لنا كدعم إضافي للأهمية التي قد يُسندها إليها المنطق والقياس.

لا يُفترض وجود أي تمثيل واضح للثعبان والبيضة بين آثار المكسيك أو أمريكا الوسطى؛ فما قد تكشفه التحقيقات المستقبلية يبقى أن نرى. إذا كنا، حتى يومنا هذا، نجهل تمامًا وجود هذا النصب التذكاري العظيم، في إحدى أكثر الدول اكتظاظًا بالسكان، فكم من كنوزٍ أثريةٍ قد تكون مخفية في معاقل الجزء الأوسط من القارة!

لطالما قيل إن كل سمةٍ في ديانة العالم الجديد، التي اكتشفها كورتيز وبيزارو، تشير إلى أصلٍ مشتركٍ مع خرافات مصر وآسيا. فعبادة الشمس نفسها، والآثار الهرمية نفسها، وشجرة الأفيولاتريا نفسها، تُميزها جميعًا. يقول أكوستا: "بُني معبد فيتزيليبوتزلي من أحجار ضخمة على شكل ثعابين مربوطة ببعضها، وسُميَّت الدائرة "دائرة الثعابين" لأن جدران السور كانت مغطاة بتماثيل ثعابين. كان فيتزيليبوتزلي يحمل في يده اليمنى عصا منحوتة على شكل ثعبان، وكانت الزوايا الأربع للتابوت الذي كان يجلس فيه تنتهي كل منها برأس ثعبان منحوت.

كان القرن المكسيكي مُمَثَّلاً بدائرة، تتوسطها الشمس، محاطة برموز السنوات. كان محيطها ثعبانًا ملتويًا في أربع عقد عند النقاط الأساسية".

كان الشهر المكسيكي مُقسَّمًا إلى عشرين يومًا؛ يرمز الثعبان والتنين إلى اثنين منها. في المكسيك، كان هناك أيضًا معبد مُكرَّس لإله الهواء، وصُمِّم بابه ليشبه فم ثعبان.

من بين أمور أخرى، يذكر بيتر الشهيد تمثالًا ضخمًا على شكل ثعبان في كامبيتشي، مصنوعًا من الحجارة والقار، وهو يلتهم أسدًا رخاميًا. عندما رآه الإسبان لأول مرة، كان دافئًا بدماء الضحايا البشرية.

تزخر اللوحات والمنحوتات القديمة بأدلة على وجود الأفيولاتريا المكسيكية، وتثبت وجود نادرًا ما نجد إلهًا مكسيكيًا لم يُرمز إليه بثعبان أو تنين. تظهر العديد من الآلهة وهي تحمل ثعابين في أيديها، وتُمثل شخصيات صغيرة من الكهنة بثعبان فوق كل رأس. يُذكرنا هذا بقوة بكهنة إيزيس المصرية، الذين وُصفوا في النحت بأفعى مقدسة على رؤوسهم ومخروط في يدهم اليسرى. ولتأكيد الصلة الأصلية المتبادلة بين جميع عبدة الثعابين في جميع أنحاء العالم، تصف اللوحات المكسيكية، بالإضافة إلى الهيروغليفية المصرية والفارسية، 76، هيروغرام أوفيت للثعابين المتشابكة في جميع أنواعها تقريبًا. ويظهر واحدٌ لافتٌ للنظر في مجموعة م. ألارد للمنحوتات؛ حيث يكون لكل من التنانين التي تُشكله رأس رجل في فمه. وكثيرًا ما تُصوَّر آلهة المكسيك وهي تقاتل الثعابين والتنانين؛ وتُصوَّر الآلهة، وأحيانًا البشر، في حوار مع هذه المخلوقات البغيضة. في الواقع، نادرًا ما توجد سمة في سرّ الأفيولاتريا لا يمكن إدراكها في الخرافات المكسيكية.

لذا، ندرك أن الأفعى في مملكة المكسيك كانت مقدسة، ورمزًا لأكثر من إله واحد: وهي ملاحظة يمكن أن تمتد إلى كل أمة أخرى تقريبًا كانت تعبد الأفعى الرمزية. هذه حقيقة لافتة وقيّمة، وتكشف في الأفيولاتريا سمة أخرى من سماتها الأصلية. لأنه يُثبت أن الثعبان كان رمزًا للألوهية الجوهرية، وليس مجرد تمثيل لخصائص خاصة تنتمي إلى بعض الآلهة دون غيرها.

مما عُرض، سيتضح أن رمز الثعبان كان مقبولًا على نطاق واسع في أمريكا، وخاصة بين الأمم شبه المتحضرة؛ وأنه دخل على نطاق واسع في تمثيلاتهم الرمزية، وكانت هذه الدلالة مطابقة في جوهرها للدلالة التي ارتبطت به بين الأمم المبكرة في القارة القديمة. بناءً على ذلك، بناءً على الهوية التي لاحظناها في المفاهيم الدينية الأولية للعالمين القديم والجديد، والتوحيد اللافت في أنظمتهما الرمزية، نشعر بأننا مُبررون في أن نُنسب إلى رمزي الثعبان والبيضة في أوهايو دلالة مطابقة جذريًا للدلالة التي أُسندت إلى الرمز المركب المُشابه بين الأمم البدائية في الشرق. ويدعم هذا الاستنتاج أيضًا طابع بعض الهياكل الدينية في القارة القديمة، حيث نجد الثعبان الرمزي والبيضة أو الدائرة مُمثلة على نطاق هائل. ربما لا يُقدم القياس دليلاً قاطعاً أكثر، إلا من خلال عرض هياكل أخرى، لا يقتصر وجودها على توافق عام فحسب، بل هوية مطلقة. من غير المعقول البحث عن مثل هذه الهوية، حتى في أعمال الأشخاص أنفسهم، المبنية وفقًا لتصميم مشترك.

77

قد يبدو من غير المتوافق مع الحذر الذي ينبغي أن يُميز أبحاثًا من هذا النوع، المجازفة بالقول إن الثعبان والبيضة الرمزيين لأوهايو يُشيران بوضوح إلى مفاهيم محددة عن نشأة الكون سادت بين دول الشرق، لأنه من المستحيل تقديم دليل قاطع على أن أيًا من الدول الأمريكية قد تبنى هذه المفاهيم. لقد كان لدينا بالفعل سبب كافٍ للندم على غياب السجلات المكتوبة والتقاليد المحفوظة بنزاهة؛ وما لم تُقدم لنا المزيد من الاستكشافات نتائج غير متوقعة، فقد يظل النقص قائمًا دائمًا. لكننا يجب أن نتذكر أن الإنسان لا يبذل جهدًا أكبر من جهده في الحفاظ على معتقداته الدينية البدائية ومفاهيمه المبكرة. وكما قال باحث فلسفي: "من بين جميع الأبحاث التي تساعدنا بفعالية في اكتشاف أصل أمة أو شعب يكتنف تاريخه غموض العصور القديمة، ربما لا يُقدم أي منها نتائج مهمة كتحليل عقائده اللاهوتية وممارساته الدينية". تتمسك البشرية بمثل هذه الأمور بأقصى درجات الإصرار، والتي، وإن تبدلت وفسدت مع تعاقب العصور، لا تزال تحتفظ بملامح بنيتها الأصلية، حين لم تعد اللغة والفنون والعلوم والمؤسسات السياسية تحتفظ بملامح مميزة لبنيتها القديمة.

ومن الأمثلة الصارخة على صحة هذه الملاحظات ديانة الهند، التي لا تزال حتى يومنا هذا، على الرغم من تعاقب الزمن والإمبراطورية، وتدمير الحروب الخارجية والأهلية، والإضافة المستمرة للخيالات المجازية (التي كانت أشد فتكًا بالنظام البدائي من جميع الأسباب الأخرى مجتمعة)، تحتفظ بملامحها الأصلية، التي يسهل تمييزها، والتي تُعرفها بالديانات التي سادت في مصر العظيمة، وفي سهول آشور، وفي وديان اليونان، وبين الأمم الأكثر صرامة حول بحر قزوين، وبين القبائل ذات الصلة على شواطئ الدول الإسكندنافية الوعرة.

ويتجلى هذا الإصرار بوضوح لا يقل وضوحًا. في الحفاظ الدقيق على الطقوس والمهرجانات تمثيلات مشهدية نشأت من مفاهيم عفا عليها الزمن، ونُسيت الآن. قلة قليلة من الحاضرين في مهرجان الأول من مايو السنوي، كما كان يُحتفل به قبل بضع سنوات في هذا البلد، وقلة قليلة ممن قرأوا عنه، يدركون أنه كان مجرد استمرار لمهرجان بعل الشمسي الربيعي، وأن العمود المُزين بالإكليل كان رمزًا للذكر قديمًا.

## الفصل ٧. مصر موطن عبادة الثعابين - يُقال إن تحوت هو مؤسس عبادة الأفاعي

كانت مصر، من بين جميع الأمم القديمة، الأكثر شهرةً بعبادة الأصنام، في بداياتها موطنًا للعبادة الفريدة التي نتأملها. يقول كاتبٌ مُلِمٌّ بهذا الموضوع: "دخلت الحية الديانة المصرية بكل شخصياتها - رمزًا للألوهية، وتعويذةً أو وحيًا، وإلهًا". كان كنيف وتحوت وإيزيس بارزين ورئيسيين بين الآلهة والإلهات المُمَثَّلة، مع أنه يُقال إنه دخل، إلى حدٍّ ما، في العبادة الرمزية لجميع الآلهة.

يصف سانخونياثون تحوت بأنه مؤسس عبادة الحية في مصر، ويُعتبر عمومًا مؤسس أقدم المستعمرات في فينيقيا ومصر بعد الطوفان. لُقّب بمُصلح أديان مصر، ويقول دين: "علّم المصريين (أو بالأحرى ذلك الجزء من مستعمرته التي استقرت في مصر) دينًا، يجمع بين الزابابية والأوفيولاتريا، وكان فيه أيضًا مزيج من الحقيقة البدائية. أطلق على الروح الإلهية اسم كنيف، ووصفه بأنه الروح الأزلية الأصلية، التي تسود كل الخليقة، ورمزها ثعبان."

أطلق الكهنة على كنيف لقب مهندس الكون، وصُوّر ثعبانًا يحمل بيضة في فمه؛ والثعبان هو رمزه الهيروغليفي، والبيضة تُشير إلى العناصر الدنيوية المنبثقة منه.

بعد وفاته، جُعل تحوت، نظير خدماته للشعب، إلهًا للصحة أو الشفاء، وهكذا أصبح النموذج الأولي لإسكليبيوس. يبدو أن علمه كان عظيماً، فقد علّم الناس علم الفلك والأخلاق والهيروغليفية والآداب. ويُصوَّر عادةً متكئاً على عصا معقودة تحيط بها أفعى. وقد كثرت في أسرار عبادة إيزيس إشارات إلى الأفعى، ويقول مونتفوكون إن مائدة إيزيس، وهي صفيحة من النحاس الأصفر مطلية بمينا نحاسية ممزوجة بصفائح من الفضة، والتي تصف الأسرار، كانت مزخرفة بالثعابين في كل جزء منها كرموز للإلهة. وكان الأفعى الصغيرة، المعروفة جيداً بأنها الأداة التي استخدمتها كليوباترا الشهيرة في انتحارها، هي الأفعى الأفعى. وقد صُوِّر هذا المخلوق ونُحت على أردية الكهنة، وتيجان الملوك، وصورة الإلهة. ويحتفظ المتحف البريطاني برأس لهذه الإلهة يرتدي تاجاً منها. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانت الزواحف الحية تُحفظ في معبدها، وكان من المفترض أن تُقدس القرابين بالزحف بينها.

كما ذكرنا، دخل الثعبان إلى حد كبير في العبادة الرمزية لجميع الآلهة المصرية، ولا يُمكن اعتبار كنيف وتحوت وإيزيس سوى ثلاثة من الآلهة الرئيسية.

يقول دين إنه نادرًا ما يوجد إله مصري لا يُرمز إليه أحيانًا. العديد من هذه الآلهة مُمثلة برؤوسها الحقيقية التي تنتهي بأجساد الثعابين. في مونتفوكون، المجلد 2، اللوحة 207، يوجد نقش لسيرابيس برأس إنسان وذيل أفعى. كما يُمثل إلهان صغيران آخران، أحدهما بثعبان برأس ثور، والآخر بثعبان برأس أسد مُشع. التمثال الثاني، الذي يفترضه مونتفوكون أنه تمثال لأبيس، محفور من المنتصف: ربما بتصميم لتعليقه حول الرقبة، كما فعلوا مع العديد من تماثيل الآلهة الصغيرة الأخرى، كنوع من الزينة أو التعويذات.

وُجد تمثال سيرابيس المُحاط بالثعابين على القبور. وكان ظهور الثعابين على القبور شائعًا جدًا. ففي جرة إغناطيوس، ونيكفوراس، وهيرباسيا كليمن، المنقوشة في مونتفوكون، المجلد 5، وُصف شابٌّ مُتشابكٌ بثعبان بأنه يسقط على رأسه على الأرض. أما في جرة هيرباسيا كليمن، فقد زُيّنت زواياها بأشكال ثعابين.

ومن المصادفات العجيبة أن يكون المخلوق الذي يُعتقد أنه جاء بالموت إلى العالم قد كرّسه الوثنيون الأوائل إلى أوعية الموتى. من اللافت للنظر أيضًا أن سيرابيس كان يُفترض لدى المصريين أن له سلطانًا على الشياطين الشريرة، أو بعبارة أخرى، كان يُعادل أفلاطون أو الشيطان.

في بعض المعابد المصرية، رُسم الثعبان بشكل واضح كرمز مُكرّس للعبادة الإلهية. وهكذا وُجد في الأقصر، وكومومبو، ودندرة، وأبولينوبوليس، وإسناي. كما تحمل مسلة بامفيليا الثعبان عدة مرات - يُقال إنه نُحت مرتين - ووفقًا لبوكوك، نُحت كل عمود من أعمدة معبد غافا مرتين.

لاحظ جميع الكُتّاب في هذا الموضوع اختلافات الشكل التي ظهرت بها الثعبان على الآثار المصرية، وشددوا على ذلك كدلالة على التقدير الكبير الذي حظي به.

لا عجب في هذا عندما نتذكر أنه كان يُنظر إليه على أنه رمز للحكمة الإلهية والقوة والطاقة الإبداعية؛ للخلود. والتجدد، من تساقط جلده؛ والخلود، عندما يُمثَّل في فعل قضم ذيله.

يقول أحد الكُتّاب إن العالم مُمثَّل بدائرة، يتقاطع فيها قطران متعامدان على بعضهما البعض، قطراهما، وفقًا لـبالنسبة ليوسابيوس، كانت الأفاعي تُمثل محيط الدائرة فقط. يقول جابلونسكي إن محيط الدائرة فقط كان أفعى. يقول كيرشر إن العناصر (أو بالأحرى ما كان يُعتبر كذلك في العصور القديمة) كانت تُمثل بالأفاعي. رُمز إلى الأرض بثعبان ساجد ذي قرنين؛ والماء بثعبان يتحرك بشكل متموج؛ والهواء بثعبان منتصب يُصدر صوت هسهسة؛ والنار بأفعى واقفة على ذيلها تحمل على رأسها كرة. يقول دين: "من هذه الهيروغليفية، يتضح أن الأفعى كانت الرمز الأكثر تعبيرًا عن الألوهية لدى المصريين."

يُذكر هنا نقش في مونتفوكون، المجلد 2، صفحة 237، يُوضح المدى الكبير الذي ساد به تبجيل الأفعى في مصر. في عام ١٦٩٤، اكتُشف في أحد أسوار مالطا القديمة طبق من الذهب، يُفترض أن أصحابه أخفوه هناك في وقتٍ كان فيه كل ما هو وثني يُدمر باعتباره بغيضًا. يقول مونتفوكون: "كان هذا الطبق ملفوفًا في صندوق ذهبي؛ يتكون من صفين طويلين يحتويان على عدد كبير جدًا من الآلهة المصرية، معظمها برأس حيوان أو طائر.

٨٢

كما تُرى العديد من الثعابين متداخلة، حيث تنتهي أذرع وأرجل الآلهة بذيول ثعابين. يحمل الشكل الأول على ظهره صدفة طويلة عليها ثعبان؛ في كل صف يوجد ثعبان ممتد على مذبح. ومن بين تماثيل الصف المقدس، تُرى إيزيس في حالة جيدة إلى حد ما. ولا شك أن هذا الطبق نفسه يحتوي على أعمق أسرار الخرافات المصرية." لا يهم أين ننظر في مصر، فرمز الثعبان نفسه موجود في كل شيء، سواء كان زخرفيًا أو مفيدًا أو دينيًا. كان البازيليسك، أكثر الثعابين سمية، ويُعتبر ملك الأنواع، ويُسمى تيمنًا بإله كنعان العراف، أوب أو أوب، يُصوَّر على عملات معدنية بأشعة على رأسه كالتاج؛ وحول العملة نُقش "أغاثوديمون". ويُقال إن الإمبراطور نيرون، في "جنون غروره"، أمر بسك عدد من هذه العملات المعدنية بنقش "أغاثوديمون الجديد"، أي نفسه. كان المصريون يُقدِّسون البازيليسك تبجيلًا شديدًا لدرجة أنهم صنعوا له صورًا من الذهب، وكرسوها ووضعوها في معابد آلهتهم. يعتقد براينت أنها كانت تُشبه الثرموثيس، أو

الأفعى القاتلة. يُقال إن كهنة المصريين كانوا يحفظون هذه المخلوقات بحفر حُفر لها في زوايا معابدهم، وكان من خرافاتهم الاعتقاد بأن من لدغته بالخطأ كان مُنعمًا عليه.

ويذكر دين أيضًا أن الثعبان يُعثر عليه أحيانًا منحوتًا ومُعلقًا على صدور المومياوات؛ ولكن ما إذا كان ذلك بغرض الحماية التعويذية، أو كدلالة على كهنوت إيزيس، فهو أمر مشكوك فيه.

وكانت مومياء أنثى، فتحها السيد باسالاكوا في باريس قبل بضع سنوات، مزينة بقلادة من الثعابين المنحوتة في الحجر.

كانت النساء اليونانيات يرتدين أساور على شكل ثعابين في زمن كليمنس ألكسدرينوس، الذي ينتقد هذه الموضة قائلاً: "لا تخجل النساء من وضع رموز الشرور المتعددة حولهن؛ فكما خدعت الحية حواء، كذلك تُضلّل الحلية الذهبية على شكل ثعبان النساء". وكان الأطفال يرتدون أيضًا أكاليل من النوع نفسه. ولا يجب أن نغفل عن ذكر عصا هرمس، التي يُقال إنها تُشكّل أحد أبرز الأمثلة على الثعبان التعويذي. وفقًا لمونتفوكون وكيرشن وآخرين، فإن فكرة أن هذا الصولجان كان ملكًا حصريًا لهيرمس أو عطارد فكرة خاطئة، إذ يمكن رؤيته في يد سيبيل، ومينيرفا أمبيس، وهرقل أوغميوس، وكوكبة العذراء المتجسدة، التي قال لوسيان إنها اتخذت رمزها من الكاهنة البيثية.

ونظرًا لتنوع أشكاله الرئيسية، حافظ الصولجان دائمًا على التصميم الأصلي لعصا مجنحة ملتوية بين ثعبانين. يُعثر عليه أحيانًا بدون أجنحة، ولكنه لا يُعثر عليه أبدًا بدون الثعابين؛ وتتمثل هذه الأشكال بشكل رئيسي في عدد طيات أجساد الثعابين حول العصا، والمواقع النسبية للأجنحة ورؤوس الثعابين. وكان يُنظر إليه على أنه قوي في شلل العقل وإحياء الموتى. يقول كيرشن إن كلمة كاديوس عُبِّر عنها في الأصل بصورة صليب بسيطة، يُقال إن تحوت، مخترعها، قد رمز بها إلى العناصر الأربعة المنبثقة من مركز مشترك.

ويقول دين: "لقد ترسخت الأفيوناتريا في مصر لدرجة أن الأفعى لم تُعتبر مجرد رمز للألوهية، بل قُدِّرت كأداة للتنجيم. كان لدى كهنة معبد إيزيس تمثال فضي لأفعى مُصمم بحيث يُمكّن الشخص الحاضر من تحريك رأسه دون أن يُلاحظه المُصلي المُتوسل.

لكن الخرافة المصرية لم تكتفِ بعبادة الإله من خلال رمزها الأفعى. فسرعان ما انحنى الوثني الأحمق أمام الرمز نفسه، وعبد هذا الزاحف، ممثل طاقة الإنسان، كإله."

بالإضافة إلى معبد كان هناك إله الثعبان العظيم كنيف في إليفانتينا، وكان هناك إله مشهور يُدعى جوبيتر في طيبة، حيث انتشرت ممارسة أوفيولاتريا بشكل كبير. يكتب هيرودوت: "في طيبة، يوجد ثعبانان، صغيران الحجم، يبرز من أعلى رأسيهما قرنان. يُدفنان ميتين في معبد جوبيتر: لأنهما يُقال إنهما مقدسان لذلك الإله". يقول إليان: "في عهد بطليموس يورجيتيس، كان يُحفظ ثعبان كبير جدًا في معبد إسكليبيوس في الإسكندرية، وفي مكان آخر كان يُحفظ ثعبان حيّ عظيم الحجم ويُعبد بتكريم إلهي؛ وقد أطلق على هذا المكان اسم ميليتي". يروي القصة التالية: "كان لهذا الثعبان كهنة ووزراء، ومائدة ووعاء. كان الكهنة يحملون إلى الحجرة المقدسة كل يوم كعكة مصنوعة من الدقيق والعسل، ثم ينسحبون. وعند عودتهم في اليوم التالي،

كانوا يجدون الوعاء فارغًا دائمًا. في إحدى المرات، دخل أحد الكهنة، متلهفًا للغاية لرؤية الثعبان المقدس، بمفرده، وبعد أن وضع الكعكة انسحب. وعندما صعد الثعبان إلى المائدة لعيده، دخل الكاهن، وفتح الباب بعنف شديد، فانصرف الثعبان غاضبًا بشدة. لكن الكاهن سرعان ما أصيب بمرض عقلي، وبعد أن اعترف بجريمته، أصبح أخرس وذاب حتى مات".

في جداول هيوارت للهيروغليفية المصرية، نرى كاهنًا يقدم العبادة لثعبان. وينطبق الأمر نفسه على مائدة إسحاق. في مقبرة بيبان، بمالوك، توجد لوحة فنية رائعة تصف طقوس أوفيولاتريا. يُصوَّر الكاهن القائم بالخدمة ممسكًا سيفًا في يده، وثلاث ضحايا بلا رؤوس راكعين أمام ثعبان ضخم. تُرى إيزيس جالسة تحت القوس المصنوع من جسد الثعبان، وخلفها الأفعى المقدسة، بوجه بشري، جالسة على ذيل الثعبان. تُثبت هذه الصورة أن الثعبان استرضته تضحيات بشرية.

تجدر الإشارة إلى أنه في مصر، كما في فينيقيا وأماكن أخرى، لم تُقضَ عبادة الثعبان فورًا مع تقدم المسيحية.

وربطها الغنوصيون بدين الصليب، وسيكون اقتباس من الأسقف بوكوك، هنا تحديدًا، مناسبًا ومثيرًا للاهتمام. وصلنا إلى ريني، حيث كان الشيخ المتدين لهريدي الشهير على ضفة النهر لاستقبالنا. ذهب معنا إلى مغارة الثعبان الذي كثر الحديث عنه باسم الشيخ هيريدي، والذي سأروي لكم عنه قصةً مفصلةً، لأُظهر حمق هؤلاء الناس وسذاجتهم وخرافاتهم؛ فالمسيحيون يؤمنون به كما يؤمن به الأتراك. صعدنا بين الجبل الصخري لنصف ميل، ووصلنا إلى جزءٍ ينفتح فيه الوادي على مصراعيه. على اليمين يوجد مسجد، مبنيٌّ بقبةٍ فوقه، على جانب الصخرة، كمقبرة شيخ. فيه شقٌّ كبيرٌ في الصخرة يُقال إن الثعبان يخرج منه. يوجد قبرٌ في المسجد، على الطريقة التركية، يُقال إنه قبر هيريدي، مما يجعل المرء يتخيل أن أحدًا منهم...
القديسون مدفونون هناك، وأنهم يظنون أن روحه قد تكون في الثعبان، لأنني لاحظت أنهم ذهبوا وقبّلوا القبر بتفانٍ كبير وصلّوا عليه. مقابل هذا الشق يوجد شق آخر، يقولون إنه قبر أوجلي حسن، أي حسن بن هيريدي؛ وهناك شقان آخران يقولون إنهما يسكنهما القديسون أو الملائكة. أخبرني الشيخ أن هناك اثنين من هذه الأفاعي، لكن الاعتقاد السائد هو أنه يوجد واحد فقط. قال إنه موجود هناك منذ عهد محمد. شكله يشبه شكل الأفاعي الأخرى من النوع غير المؤذي. يخرج فقط خلال أشهر الصيف الأربعة، ويقال إنهم يضحّون له. أنكر الشيخ ذلك، وأكد أنهم لم يحضروا سوى الحملان والأغنام والمال لشراء زيت للمصابيح - لكنني رأيت الكثير من الدماء والأحشاء الوحوش التي قُتلت مؤخرًا أمام الباب.

القصص سخيفة لدرجة أنه لا ينبغي تكرارها، لولا أنها تُعطي مثالًا على عبادتهم للوثنية في تلك الأنحاء في هذا الصدد، مع أن الديانة الإسلامية تبدو بعيدة كل البعد عنها في أمور أخرى. يقولون إن فضيلة هذه الحية هي شفاء جميع أمراض من يذهبون إليها.

كما أنها مليئة بقصة مفادها أنه عندما تذهب مجموعة من النساء إلى هناك مرة واحدة في السنة، يمر وينظر إليهن، ثم يذهب ويلف حول عنق أجملهن.

لقد دُهشتُ عندما سمعت مسيحيًا عاقلًا وواثقًا يقول إنه كان دائمًا يشفي أي مرض، ولكن ما هو أسوأ من ذلك كان يحدث. ويعتقد البعض حقًا أنه يصنع المعجزات، ويقولون إن الشيطان المذكور في طوبيا هو الذي قاده الملاك جبرائيل إلى أقصى أنحاء مصر.

## الفصل الثامن. اشتقاق اسم "أوروبا" - اليونان التي استعمرها الأوفيتيون

اشتق كلٌّ من براينت وفابر اسم "أوروبا" من "أوراب"، أي الأفعى الشمسية. يقول دين: "سواءً كان هذا صحيحًا أم لا، فمن المؤكد أن أوفيولاتريا سادت في هذا الجزء من العالم في أوائل عصور الوثنية. ويُقال إن أوائل سكان أوروبا كانوا من نسل امرأة، جزء منها بشري وجزء منها ذو شخصية درامية، وهو تقليد يُلمّح إلى أصلهم الأوفيتي.

"من بين دول أوروبا، استعمر الأوفيون اليونان لأول مرة، ولكن في أوقات منفصلة، من مصر وفينيقيا؛ ومن المشكوك فيه، وإن كان قليل الأهمية، ما إذا كان زعيم المستعمرة الأولى، كادموس الشهير، فينيقيًا أم مصريًا. وقد أظهر بوخارت أن كادموس كان قائد الكنعانيين الذين فروا أمام أحضان يشوع المنتصر؛ وقد أثبت براينت أنه كان مصريًا، وهو نفسه تحوت. ولكن بما أن أسماء الأفراد لا قيمة لها، إذ يتفق الجميع على أن الخرافة نفسها كانت موجودة في البلدين في وقت واحد، وبما أن تحوت قد أعلنه سانخونياثان أبًا للأوفيولاتريا الفينيقية والمصرية على حد سواء؛ يمكننا أن نسعى دون غرور إلى التوفيق بين آراء هؤلاء المؤلفين المتعلمين بافتراض أن كل واحد منهم على حق في حجته.

في اليونان، توجد آثار عديدة لعبادة الثعبان - فقد كان شائعًا جدًا في وقت ما لدرجة أن جوستين الشهيد أعلن أن الناس أدخلوه في أسرار جميع آلهتهم. ومن المعروف بالطبع أنه لعب دورًا بارزًا في أسرار باخوس وإفراطاته. كان الناس يحملونها ملفوفة على رؤوسهم، ويحملونها بأيديهم، ويلوحون بها وهم يصرخون بصوت عالٍ: "إينيا، إينيا". كانت علامة مراسم باخوس ثعبانًا مقدسًا، وفي المواكب، كانت مجموعة من العذارى من العائلات النبيلة تحمل الزاحف بسلال ذهبية تحتوي على السمسم وكعك العسل وحبوب الملح، وهي كلها مواد مرتبطة بشكل خاص بعبادة الثعبان. أول مايو يمكن رؤيتها في المتحف البريطاني، بأيدي كهنة راكعين أمام ثعبان مصر المقدس. ووفقًا لهيرودوت، كانت كعكات العسل تُقدم مرة واحدة شهريًا كطعام للثعبان المقدس في الأكروبوليس بأثينا. ويُقال إن السمة الأبرز في طقوس باخوس كانت الثعبان الصوفي. "كان سر الدين في جميع أنحاء العالم مخفيًا في صندوق أو صندوق. وكما كان لدى بني إسرائيل تابوتهم المقدس، كان لدى كل أمة على وجه الأرض وعاء مقدس للأشياء والرموز المقدسة. وقصة إريكثونيوس خير مثال على هذه الملاحظة. كان رابع ملوك أثينا، وكان جسده ينتهي بذيول ثعابين، بدلًا من أرجلها. وضعته مينيرفا في سلة، أعطتها لابنة كيكروبس، مع أوامر صارمة بعدم فتحها. لدينا هنا حكايةٌ مبنيةٌ على حقيقةٍ بسيطةٍ تتعلق بالسلة الغامضة، التي حُمل فيها الثعبان المقدس في حفلات باخوس.

تتعلق الأسطورة بأكملها بأوفيولاتريا. وفقًا للعرف العام، كان عابدو باخوس يحملون في سلالهم أو صناديقهم المقدسة سر إلههم، مع القرابين.

في ولائم الباخوس، أو بالأحرى، بعدهم، كان من المعتاد حمل كأس، تُسمى "كأس الشيطان الصالح". كان رمز هذا الشيطان ثعبانًا، كما هو موضح على ميداليات مدينة ديونيسوبوليس في تراقيا. على أحد الجانبين كان رأسا غورديان وسيرابيس، وعلى الجانب الآخر ثعبان ملفوف.

اختلطت الأفعى إلى حد كبير بعبادة العديد من الآلهة اليونانية الأخرى. تُصوّرها تماثيل مينيرفا، من صنع فيدياس، مزينة بهذا الرمز. في الميداليات القديمة، كما هو موضح من قبل مونتفوكون، كانت تحمل أحيانًا عصا هرمس في يدها اليمنى؛ وفي أحيان أخرى كانت تحمل عصا حولها... الثعبان ملتوٍ، وفي صور أخرى، يظهر ثعبان كبير يمر أمامها؛ بينما تُرى أحيانًا بعرفها المكون من ثعبان. ومن اللافت للنظر أيضًا أنه في الأكروبوليس بأثينا، كان يُحتفظ بثعبان حي يُعتبر حارسًا للمكان، وكانت أثينا مدينةً مُكرسةً خصيصًا لمينيرفا.

88

يمكن بسهولة حصر أمثلة على الأفيولاتريا اليونانية إلى حد كبير، ولكن لا يتسع المجال لأكثر من لمحة سريعة.

من المعروف أنه على جدران أثينا كان هناك رأس منحوت لميدوسا، كان شعرها متشابكًا مع الثعابين، وفي معبد تيغا كان هناك تمثال مشابه يُفترض أنه يمتلك قوة تعويذية للحفظ أو التدمير. تُصوّر طبعة مونتفوكون وجه ميدوسا على أنه لطيف وجميل، بينما تُصوّر الثعابين على أنها مُهددة ورهيبة. هناك قصة شائعة، مفادها أن كاهنة تدخل في جوف الليل، رأى أحد حراس معبد مينيرفا رؤيا لتلك الإلهة، وهي ترفع عباءتها المنقوش عليها رأس ميدوسا، وأن رؤية هذا الشيء المخيف حوّلت الدخيلة إلى حجر على الفور.

كان درع أجاممنون، ملك أرغوس، مزخرفًا كان يحمل ثعبانًا ثلاثي الرؤوس؛ وكان مينيلوس، ملك إسبرطة، يحمل واحدًا على درعه، وكان شعب إسبرطة، مع الأثينيين، يؤكدون أنهم من أصل أفعى، ويسمون أنفسهم "أفيوجيني". وفي إبيداوروس، وفقًا لبوسانياس، كان الخدم يحتفظون بالثعابين الحية ويُطعمونها بانتظام، وكانوا، بدافع الرهبة الدينية، يخشون الاقتراب من الزواحف المقدسة التي كانت في حد ذاتها أقل ضررًا. ويُصوَّر تمثال إسكليبيوس، في هذا المعبد، وهو يضع إحدى يديه على رأس ثعبان، بينما كانت أخته هيجيا تحمل واحدة ملتوية حولها. ويُقال إن الإله إسكليبيوس نُقل بواسطة امرأة تُدعى نيكاغورا، زوجة إيخيتيموس، إلى سكيون على شكل ثعبان. يروي ليفي، وأوفيد، وفلوروس، وفاليريوس ماكسيموس، وأوريليوس فيكتور، أن وباءً عنيفًا ومميتًا انتشر في روما، وأن عرافة دلفي نصحت بإرسال سفارة إلى إبيداوروس لإحضار الإله إسكليبيوس. فُهمت هذه النصيحة، وأُرسلت فرقة من أحد عشر شخصًا يحملون توسلات مجلس الشيوخ وشعب روما المتواضعة. وبينما كانوا ينظرون إلى تمثال الإله، انسلّت من مخبئها ثعبان، "جليل، غير مرعب"، كما يقول هؤلاء المؤلفون، نادرًا ما كان يظهر إلا عندما ينوي تقديم منفعة استثنائية، وبعد أن مرّ بالمدينة، توجه مباشرةً إلى السفينة الرومانية، ولفّ نفسه في سرير أوغولنيوس، السفير الرئيسي. أبحروا مع الإله، ووصلوا في الوقت المناسب قبالة أنتيوم، عندما قفز الثعبان في البحر، وسبح إلى أقرب معبد لأبولون، وعاد بعد بضعة أيام. ولكن عندما دخلوا نهر التيبر، قفز على جزيرة واختفى. هنا، بنى الرومان له معبدًا على شكل سفينة، وتم إيقاف الطاعون بسرعة مذهلة.

يبدو أن دلفي كانت المعقل الرئيسي لعبادة الثعابين في اليونان. يقول سترابو إن اسمها الأصلي كان بيثو - مشتق من الثعبان بيثون، الذي قتله أبولو هناك. من هذه القصة، يستنتج هاينسيوس أن الإله أبولو كان يُعبد لأول مرة في دلفي، تحت رمز الثعبان. من المعروف أن التجمعات العامة في دلفي كانت تُسمى بيثيس،

وكانت مخصصة في الأصل لعبادة الثعبان. في كتابي جيبون وحوليات تورتشيتشي، نجد معلومات شيقة حول العمود الأفعواني. يذكر الأول أنه نُقل من دلفي إلى القسطنطينية على يد مؤسس المدينة الثانية ونُصب على عمود في ميدان سباق الخيل. أما مونتفوكون فيعتقد أن قسطنطين هو من أمر بصنع عمود مماثل، وأن العمود الأصلي بقي في مكانه. يقول دين: "لا يزال هذا الأثر التذكاري الشهير لأوفيولاتريا موجودًا في نفس المكان الذي نصبه فيه قسطنطين، ولكن أحد رؤوس الأفعى مُشوّه."

من حوليات تورتشيتشي، نجد التفسيرات التالية لهذا السؤال: "عندما وصل محمد إلى أتميدان، رأى هناك عمودًا حجريًا، وُضع عليه ثعبان نحاسي ثلاثي الرؤوس. فنظر إليه وسأل: ما هذا الصنم؟" وفي الوقت نفسه، ألقى صولجانه الحديدي بقوة هائلة، فكسر الفك السفلي لأحد رؤوس الأفعى. وعلى الفور، بدأت الأفاعي بالظهور في المدينة. عندها نصحه البعض بترك تلك الأفعى وشأنها من الآن فصاعدًا، لأنه بفضل تلك الصورة، لم تكن هناك أفاعي في المدينة. ولذلك، بقي ذلك العمود قائمًا إلى يومنا هذا. ومع أن بعض الأفاعي تدخل المدينة بعد كسر الفك السفلي للأفعى النحاسية، إلا أنها لا تؤذي أحدًا. في تعليقه على هذه القصة، يُلاحظ دين: "هذه الأسطورة التقليدية، التي حفظها لونكلافيوس، تُشير إلى المعقل الذي لا بد أن أوفيولاتريا قد ترسخت في أذهان أهل القسطنطينية، مما أدى إلى تناقل هذه القصة حتى عصر متأخر كالقرن السابع عشر. كان من بين اليونانيين الذين لجأوا إلى القسطنطينية العديد من عبدة الأوثان من أتباع الديانة القديمة، الذين كانوا يُرسلون عمدًا أي أسطورة تُناسب خرافاتهم. ومن ثم، فمن المُرجح أن التعويذة المذكورة أعلاه قد رُبطت من قِبلهم بثعبان دلفي على عمود في ميدان سباق الخيل، وأُعيد إحياؤها (بعد التشويه الجزئي للرمز) من قِبل أحفادهم، عامة الناس، الذين كانوا دائمًا آخر من يتخلى عن الخرافة القديمة في كل بلد. بين عامة أهل القسطنطينية، كان هناك دائمًا وثنيون أكثر بكثير من المسيحيين في قلوبهم. وبالتالي، مع الدين المسيحي الذي كانوا... وقد امتزجت العديد من التقاليد الوثنية التي كانت مرتبطة بالآثار القديمة التي كانت تزين بيزنطة، أو التي تم استيرادها إلى القسطنطينية.

**الفصل التاسع. الأفيولاتريا في بريطانيا - الدرويديون - الأفاعي - قصيدة تاليسين**

ربما يكون هذا الأمر مفاجئًا للكثيرين، ولكن من المؤكد أن نبات الأوفيولاتريا كان سائدًا إلى حد كبير حتى في بريطانيا في العصور القديمة. يقول دين: "لم يكن أسلافنا البريطانيون، تحت رعاية الكهنة الدرويديين الموقرين، يعبدون إله الشمس، الذي يرمز إليه بالثعبان فحسب، بل كانوا يُجلّونه تبجيلًا خاصًا، بغض النظر عن علاقته بالشمس. وبسبب عزلتهم عن العالم المتحضر، جزئيًا بسبب بُعدهم وجزئيًا بسبب طابعهم الوطني، احتفظ البريطانيون بوثنيتهم البدائية لفترة طويلة بعد أن خضعت في البلدان المجاورة لفساد التعدد الإلهي في اليونان ومصر. ومع مرور الوقت، تغلغلت آلهة الكهنة الغال في الأساطير المقدسة للبريطانيين، وقدّمت تجسيدات للصفات المختلفة للإله التنين هو. أُطلق على هذا الإله اسم "حاكم التنين للعالم"، وكانت عربته تجرها الثعابين. وكهنته، تماشيًا مع العادة العامة لإله أوفيت، كانوا يُدعون بعده "الأفاعي". في قصيدة لتاليسين، ترجمها ديفيز، في ملحقه رقم 6، يرد التعداد التالي لألقاب أحد الدرويد: "أنا درويدي؛ أنا مهندس معماري؛ أنا نبي؛ أنا أفعى (غنادر).

من كلمة "غنادر" اشتُقت كلمة "أدّر"، وهو اسم نوع من الأفاعي. يُرجّح أن غنادر كان يُنطق مثل "أدّر" مع شفاط أنفي.

وتضمّنت أساطير الدرويد أيضًا إلهة تُدعى "سيريدوين"، كانت عربتها تجرّها الأفاعي. ويُعتقد أن هذه الإلهة هي "سيريس" اليونانية؛ وليس ذلك عبثًا، فالتواصل المثير للاهتمام بين الدرويديين البريطانيين والغاليين أدخل إلى ديانة الأولى الأكثر نقاءً العديد من التحريفات التي غرسها الإغريق والرومان في ديانة الثانية. كان لدى الدرويديين في بلاد الغال العديد من الآلهة التي تُقابل آلهة اليونان وروما. كانوا يعبدون أوغميوس (إله مركب بين هرقل وعطارد)، ومن بعده أبولو، ومارس، وجوبيتر، ومينيرفا، أو آلهة أخرى. تشبههم. صنعوا منها تماثيل؛ بينما كانت الصورة الوحيدة في العبادة البريطانية حتى ذلك الحين هي الصنم الخوص الكبير الذي كانوا يدفعون فيه ضحايا بشرية مُصممة للحرق كذبيحة تكفيرية عن خطايا أحد الزعماء.

في الترجمة التالية لقصيدة باردية، تصف إحدى طقوسهم الدينية، تُطابق خرافة الدرويديين البريطانيين مع خرافة أوفيولاتريا الأصلية، كما عُبر عنها في أسرار إيزيس المصرية.

عنوان القصيدة "مرثية أوثر بندراغون"، أي "رأس التنين"؛ ومن اللافت للنظر أن كلمة "درينغ" في اللغة البريطانية تعني، في الوقت نفسه، ثعبانًا ناريًا، وتنينًا، والإله الأعظم. في الجزء الثاني من هذه القصيدة، نجد طقوس التضحية التالية لأوثر بندراجون:

"باحتفال مهيب حول البحيرتين؛

والبحيرة بجانبي؛

وجانبي يدور حول الحرم؛

بينما الحرم ينادي بحرارة

الملك المحلق، الذي أمامه تتراجع الحسناء على الحجاب الذي يغطي الأحجار الضخمة؛

بينما التنين يدور حول

الأماكن التي تحتوي على أواني

قرابين الشراب؛

بينما قرابين الشراب في القرون الذهبية؛

بينما القرون الذهبية في اليد؛

93

بينما السكين على الضحية الرئيسية،

أتوسل إليك بإخلاص، أيها الجرس المنتصر، إلخ، إلخ".

هذا سرد دقيق ومثير للاهتمام للطقوس الدينية للدرويد، يثبت بوضوح إدمانهم على الأفيولاتريا: إذ ليس لدينا فقط تاريخ "الطيران الملك، الذي يلاحق "الجميلة"، مُصوَّر على "الحجاب الذي يغطي الأحجار الضخمة" - وهو تاريخ يُذكرنا بقوة بأحداث الجنة، مُرتديًا ثوبًا شعريًا؛ ولكن لدينا أيضًا، تحت ذلك الحجاب، داخل الدائرة المقدسة "للأحجار الضخمة"، "التنين العظيم، الحية الحية"، يتحرك حول الأماكن التي تحتوي على أواني تقديم القرابين؛ أو بعبارة أخرى، يتحرك حول حجر المذبح بنفس الطريقة التي كان بها الثعبان في أسرار إسحاق يمرر الأواني المقدسة التي تحتوي على القرابين.

من المرجح جدًا أن القرون الذهبية التي تحتوي على قرابين الشراب كانت من نفس النوع الذي عُثر عليه في تونديرا، في الدنمارك. تجلّت قدسية الثعبان في جانب آخر غريب من خرافة الدرويديين البريطانيين، وتحديدًا فيما يتعلق بتكوين وفضائل "أنغوينوم" الشهير، كما يُطلق عليه بليني، أو "غلينين نادرويث"، أي "أحجار الثعبان"، كما كان يُطلق عليها البريطانيون. يُقدّم السير ر. س. هور في كتابه "ويلتشير الحديثة، مائة أميسبري"، نقشًا لأحدها، ويقول: "هذا رأس من التزجيج غير الكامل يُمثّل خطين دائريين من نافذة السقف المعتمة والأبيض، ويبدو أنهما يُمثّلان ثعبانًا ملتفًا حول مركز مثقوب". كتب السيد لويد، عالم الآثار الويلزي، إلى رالف ثورنلي قائلًا: "أنا مُقتنع تمامًا بأنها كانت تمائم للدرويديين. لقد رأيتُ واحدة منها عليها تسع ثعابين صغيرة". هناك آخرون لديهم واحد أو اثنين أو أكثر من اللقطات تصلنا قصة، من مصدر روماني (قصة بليني)، مفادها أن فارسًا دخل محكمة عدل مرتديًا anguinum حول رقبته، فأمر كلوديوس بإعدامه، ظنًا منه أن هذا التأثير سيقلب الحكم لصالحه بشكل غير لائق. وعن هذا) anguinum كلمة مشتقة منanguis ، أي ثعبان(، يقول بليني: "عدد لا حصر له من الثعابين، متشابكة معًا في حرارة الصيف، تتدحرج في كتلة، ومن لعاب أفواهها ورغوة أجسادها تتكون بيضة تسمى .'anguinum' بسبب الهسهسة العنيفة للأفاعي، تُدفع البيضة في الهواء، ويتعين على الدرويد، المُقدّر له تأمينها، أن يمسكها بسترته المقدسة قبل أن تصل إلى الأرض.

ستجد معلومات حول انتشار هذه الخرافة في إنجلترا في كتاب ديفيز "أساطير الدرويد"، وكتاب كامدن "بريتانيا"، وكتاب بورلاس "كورنوال."

لعل أبرز الآثار البريطانية لهذه العبادة توجد على التلال المطلة على قرية أبوري، في مقاطعة ويلتشير. هناك، على بُعد ستة وعشرين ميلاً من أطلال ستونهنج الشهيرة، توجد بقايا معبد سربنتين عظيم - أحد أروع المعابد، وهو بالتأكيد أحد أكثر المعالم إثارة للاهتمام في الجزر البريطانية. وقد وصفه الدكتور ستوكلي بدقة لأول مرة عام ١٧٩٣ في عمله الشهير بعنوان "أبوري، معبد..." الدرويديون البريطانيون. وقد فحصه السير ر. س. هوار بعناية لاحقًا، ونُشر وصفٌ له في عمله المُفصّل "ويلتشير القديمة". وكان الدكتور ستوكلي أول من اكتشف تصميم الهيكل، وقد أيدت ملاحظات كل عالم آثارٍ خلفه استنتاجاته.

كان معبد أبوري يتكون في الأصل من امتدادٍ ترابيٍّ ضخمٍ يبلغ قطره 1400 قدم، يُحيط بمساحةٍ تزيد عن اثنين وعشرين فدانًا. يحتوي على خندقٍ داخلي، ويبلغ ارتفاع السد، بدءًا من أسفل الخندق، سبعة عشر قدمًا. وهو منتظمٌ تمامًا، وإن لم يكن دائرةً دقيقةً في الشكل، وله أربعة مداخل مُتباعدةٍ بمسافاتٍ متساوية، وإن كانت بزوايا قائمةٍ تقريبًا. داخل هذه الدائرة الكبيرة، كانت هناك في الأصل دائرتان مزدوجتان أو مُتحدتا المركز، مُكوّنتان من أحجارٍ ضخمةٍ قائمة: وُضع صفٌّ من الأحجار الكبيرة، يبلغ عددها مئة حجر، على الحافة الداخلية للخندق. يمتد على... من هذا البناء المركزي الضخم، كانت هناك خطوط متوازية من أحجار ضخمة قائمة، تُشكل على كل جانب ممرات يزيد طولها عن ميل. شكّلت هذه الممرات جسم الثعبان. يتكون كل ممر من مئتي حجر. كان رأس الثعبان مُمثلاً بهيكل بيضاوي يتكون من خطين متحدي المركز من الأحجار القائمة؛ الخط الخارجي يحتوي على أربعين حجراً، والخط الداخلي ثمانية عشر حجراً. يرتكز هذا الرأس على مرتفع يُعرف باسم أوفرتون، أو تل هاكبن، ومنه يُطل على منظر كامل للبناء، متعرجاً لأكثر من ميلين حتى نقطة الذيل، باتجاه بيكهامبتون.

95

تعني كلمة هاكبن في اللهجات البريطانية القديمة هاك، أي ثعبان، وبن، أي رأس، أي رأس الثعبان. يقول ستوكلي: "إلى اسمنا هاكبن، يُشير إلى أوخيم، التي تُسمى "مخلوقات حزينة" في ترجمتنا". عيسى (13: 21)، متحدثاً يقول عن خراب بابل: "ستستلقي وحوش الصحراء هناك، وستمتلئ بيوتهم بالأوتشيم، وستسكن البوم هناك، وسيرقص الساتير هناك". ترجمها القديس جيروم إلى "ثعابين". يُطلق العرب على الثعبان اسم "هاي"، وثعابين الغابة اسم "هاجشين"، ومن هنا جاء اسم "هاكبن"؛ فكلمة "بن" تعني "رأس" في اللغة البريطانية. من المحتمل أن أتباع أوفيولاتريا قد تغلغلوا في كل أنحاء بريطانيا، وذلك بفضل بقايا بعض هذه الأصنام التي لا تزال موجودة حتى الآن في اسكتلندا والجزر الغربية. ولا تزال العديد من المسلات باقية في محيط أبردين ودندي وبيرث، وعليها نقوش تشير بقوة إلى أوفيولاتريا. وقد نُقشت هذه النقوش في كتاب غوردون "إيتينيراريوم سيبتنتريونالي". ويُعتبر الثعبان من النقوش الهيروغليفية الشائعة واللافتة للنظر. ومن خلال الحروف الرونية المنقوشة على بعض هذه الأحجار، يُفترض أنها نُصبت على يد الدنماركيين. وربما كان هذا هو الحال؛ لكن الدنماركيين أنفسهم كانوا طائفة من الأوفيين، ولولا أن سكان البلاد كانوا من الأوفيين أيضًا، لما سمحوا لهذه الآثار بالبقاء. إن الآثار التي تشير إلى وجود عبادة الثعابين

في أيرلندا نادرة للغاية، ولكن يجب أن نتذكر القصة الشائعة في البلاد، والتي تؤمن بها غالبية سكانها، والتي تقول إن القديس باتريك نفى جميع الثعابين من أيرلندا بصلواته. في النهاية، قد لا يعني هذا أكثر من أنه بوعظه قلب الممارسات الخرافية لعبدة الثعابين في عصره واقتلعها من جذورها.

## الفصل العاشر. الهند، مكانة بارزة في تاريخ عبادة الثعابين - ناغبور - اعترافات عابد الثعابين

خلال هذا العمل، أتيحت لنا الفرصة مرارًا وتكرارًا للإشارة إلى الهند باعتبارها موطن العبادة الفريدة التي أمامنا، وربما يمكن وضع هذا البلد جنبًا إلى جنب مع مصر نظرًا لكثرة الأمثلة التي يقدمها لما نسعى إلى توضيحه. يقول السيد ريفيت-كارناك، الذي اقتبسنا من بحثه المنشور في مجلة جمعية البنغال الآسيوية:

"يقودني قصر عائلة بونسلاه في بنارس إلى ناجبور، حيث بدأتُ منذ سنوات عديدة بتدوين بعض الملاحظات الأولية عن عبادة الثعبان، دون نجاح يُذكر. وبالبحث في بعض الرسومات القديمة، أجد أن الماهاديو في أقدم معابد ناجبور يعلوه الناغ كما في بنارس. وفي المعبد القديم بالقرب من قصر ناجبور، أو مدينة الناغ أو الكوبرا، يوجد ثعبان ذو خمسة رؤوس، ملتفّ بإتقان. ويبدو أن عائلة بونسلاه أخذوا الناغ الملتفّ معهم إلى بنارس. ويوجد تمثيل مماثل للناغ في المعبد بالقرب من بوابة إيتواره في ناجبور. وهنا مرة أخرى... يُعبَد الناغ أو الكوبرا بالتأكيد في ماهاديو أو القضيب، وهناك بعض النقاط الواضحة المرتبطة بالوضعية التي تتخذها الكوبرا عند إثارتها وامتداد قلنسوتها، مما يُشير إلى سبب اعتماد هذه الأفعى تحديدًا كتمثيل للقضيب ورمز لشيفا.

"عبادة الأفعى شائعة جدًا في مقاطعة ناغبور القديمة، حيث يكثر أتباع شيفا أو ناغ بوشان، "من يرتدي الثعابين كزينة له"، وخاصة بين الطبقة الدنيا. ومن المرجح أن المدينة أخذت اسمها من معبد ناغ، الذي لا يزال موجودًا هناك، وأن نهر ناغ ربما أخذ اسمه من المدينة أو المعبد، وليس المدينة من النهر، كما يعتقد البعض. من المؤكد أن العديد من طبقة الكونبي، أو طبقة المزارعين، يعبدون الأفعى فقط، وأن هذه العبادة تتجاوز مجرد الرهبة الخرافية المعتادة التي ينظر بها جميع الهندوس إلى الأفعى. أجد من ملاحظاتي أن أحد الكونبي الذين استجوبتهم قديمًا، عندما كنت مسؤولًا عن المستوطنات في معسكر بمقاطعة ناجبور، ذكر أنه يعبد الأفعى فقط؛ وأنه يعبد تماثيل الطين للثعبان، وعندما يستطيع دفع المال لصائدي الأفاعي لإلقاء نظرة على ثعبان حي، فإنه يعبده؛ وأنه إذا رأى ثعبانًا على الطريق، فإنه يعبده، وأنه يعتقد أنه لا يوجد هندوسي يقتل ثعبانًا أو كوبرا إذا علم أنه ثعبان. ثم أعطاني قائمة الأدوات التالية التي سيستخدمها في عبادة الثعبان، عندما يستطيع ذلك: وأعتقد أن القائمة مشابهة لما يُستخدم في عبادة شيفا العادية. ١- الماء. ٢- الغند، صبغة خشب الصندل للجبهة أو الجسم. ٣- الأرز المنظف. ٤- الزهور. ٥- أوراق شجرة الكفالة. ٦- الحليب. ٧- اللبن الرائب. ٨- خيط أو قطعة قماش. ٩- مسحوق أحمر. ١٠- الزعفران. ١١- العبير، مسحوق مكون من مواد عطرية. ١٢- أكاليل الزهور. ١٣- البوتماه أو الحبوب المنقوعة والمجففة. ١٤- الجواري. ١٥- خمسة أضواء. ١٦- الحلويات. ١٧- أوراق التنبول. ١٨- جوز الهند. ١٩---مبلغ من المال (حسب الإمكانيات). ٢٠---زهور يقدمها المتضرع، مع ضم راحتي يديه.

أكد لي مُخبري أن جميع هذه الهدايا تُقدم للأفعى بتتابع منتظم، واحدة تلو الأخرى، ويردد العابد في كل مرة تراتيل أو تعاويذ معينة. بعد تقديم كل هذه الهدايا، يسجد العابد أمام الأفعى، ويتوسل طلبًا للعفو إن كان قد أساء إليه، ويرجو أن يستمر في إحسانه إليه ويحميه من كل خطر.

في "المذكرات الشرقية" لفوربس، يُروى لنا عن بستانيي غوزيرات الذين لم يسمحوا أبدًا بإزعاج الأفاعي، وكانوا ينادونها بـ"الأب" و"الأخ" وغيرها من الألقاب المألوفة والمحببة. وكان كبير البستانيين يُكرمها تكريمًا دينيًا. كما يقول دين، "نلاحظ هنا مزيجًا من عبادة الثعبان الأصلية، وعقيدة التناسخ الحديثة."

ومن اللافت للنظر المعلومات الواردة في كتاب "حجاج بورشاس"، والتي تفيد بأن ملكًا من كاليكوت بنى أكواخًا للثعابين الحية، التي كان يعتني بها بعناية فائقة، وجعل قتل أي شخص في مملكته جريمة كبرى. ويقول: "كان السكان الأصليون ينظرون إلى الثعابين على أنها موهوبة بأرواح إلهية."

ثم هناك مهرجان يُسمى "عيد الثعابين"، حيث يضع كل عابد، على أمل استرضاء الزواحف خلال العام التالي، جزءًا من أرزه للثعبان المقنع على واجهة منزله. آلهة الهند ومعابدها وكهوفها الرائعة، كتلك الموجودة في سالسيت وإليفانتا، كما يتضح في كتاب "الآثار الهندية" لموريس، و"البانثيون الهندوسي" لمور، و"الأبحاث الآسيوية"، و"عبادة الأصنام الوثنية" لفابر، وأعمال أخرى عديدة، تُزيّن عالميًا بهذا الرمز العظيم، أو تُمثّل به. وهكذا نجد تمثال جين، أسكليبيوس الهندي، مُرتديًا عمامةً على رأس ثعبان ذي سبعة رؤوس؛ وتمثال فيشنو على صخرة في نهر الجانج، مُستلقيًا على ثعبان ملفوف تُشكّل طياته المتعددة مظلةً فوق الإله النائم؛ باروس نوث يرمز إليه بالثعبان؛ جاغان ناث يُعبد على شكل تنين ذي سبعة رؤوس. يبدو أن هاري أحد ألقاب فيشنو - أي لقب الإله في صفته الحافظة - وقد لوحظ ظهوره على الصخرة، كما ذُكر آنفًا، في كتاب هيتوباديسا لويلكين: "مقابل سلطان غانج تقريبًا، وهي بلدة كبيرة في مقاطعة بهار، تقف صخرة من الجرانيت، تُشكل جزيرة صغيرة في نهر الغانج، تُعرف لدى الأوروبيين باسم "صخرة إيتشانجيري"، وهي جديرة باهتمام المسافر نظرًا للعدد الهائل من الصور المنحوتة على كل جزء من سطحها. ومن بين البقية، هاري، ذو الحجم الهائل، مستلقيًا على ثعبان ملتف، وقد صمم الفنان رؤوسه (العديدة) لتمديدها لتشكل نوعًا من المظلة فوق الإله النائم؛ ومن كل فم من فميه يخرج لسان متشعب، يبدو أنه يُهدد بالموت الفوري لأي شخص قد يدفعه التهور إلى إزعاجه. كل شيء يكاد يكون واضحًا. من الكتلة التي نُحت عليها. إنها مُتخيلة بدقة ومُنفذة بمهارة كبيرة. يُعلِّم الهندوس الاعتقاد بأنه في نهاية كل كالبا (خلق أو تكوين) تُمتص كل الأشياء في الإله، وأنه في فاصل خلق آخر، يستريح على الثعبان سيشا (المدة) الذي يُسمى أيضًا أنانتا (الخلود).

يقول مور إن غارودا كان حيوانًا - نصف طائر ونصف إنسان - وكان فاهان أو مركبة فيشنو، وهو أيضًا الأخ الأصغر لأرون. يُوصف أحيانًا بالطريقة التي يصف بها شعراؤنا ورسامونا غريفين أو كروب؛ ويُوضع عند مدخل الممرات المؤدية إلى جنة عدن الهندوسية، ويظهر هناك بشخصية ملاك مُدمر بقدر ما يقاوم اقتراب الثعابين، وهو ما يبدو في معظم أنظمة الأساطير الشعرية أنه كان الشكل الجميل والمخادع والمُضلِّل الذي اتخذته الخطيئة في الأصل.

تزوج غارودا امرأة جميلة؛ فخشيت قبائل الثعابين من أن يرث نسله ميوله ويتغلب عليهم، فشنت حربًا شرسة ضده؛ لكنه دمّرهم جميعًا، إلا واحدًا، وضعه كزينة حول عنقه. في كهف إليفانتا، غالبًا ما يُرى غارودا بهذه الزائدة؛ وهناك بعض العملات الذهبية القديمة جدًا التي تُصوّره بثعابين أو فيلة في مخالبه ومناقيره. ناغانتيكا، مُدمّر الثعابين، هو أحد أسمائه. كان ذا نفع كبير لكريشنا في تطهير البلاد المحيطة بدواركا (أو درافيرا) من الحيوانات الضارية والزواحف الضارة. منح فيشنو غارودا القدرة على تدمير

أعدائه وأعداء شيفا، بما في ذلك عمومًا أولئك المذنبين بالنجاسة الدائمة، والكافرين، وتجار الإثم، والناكرين للجميل، ومن يشتمون مرشديهم الروحيين، أو ينجسون أسرتهم؛ لكنه منعه من لمس براهمان، مهما كانت ذنبه، لأن ألم العصيان سيكون ألمًا حارقًا في حلقه، وأي اعتداء على شخص قديس أو تقيّ سيتبعه نقص كبير في قوته. ومع ذلك، كان غارودا أحيانًا، عن طريق الخطأ، يقبض على كاهن أو رجل دين، لكنه يُنذر ويُعاقب في الحالة الأولى بلهب متقد، ولم يتمكن، حتى بعد أن قيده في عرينه، من إيذاء رجل التقوى.
بالنسبة لراما أيضًا، في حرب لاوكا، كان غارودا مفيدًا للغاية: ففي صراع راما الأخير مع رافانا، لم يُهزم الأخير إلا بمساعدة غارودا، الذي أرسله فيشنو لتدمير سهام رافانا الأفعى. تُسمى هذه السهام "شاربا-فانا" (في اللهجة الحالية، ساربا ثعبان)، وتُحرف إلى ساب أو سمب، وفانا، سهم، إلى بان)، وكانت لديها القدرة على فصل القوس عن الشيء إلى أجزاء متعددة، كل منها يصبح ثعبانًا. منح فيسواميترا راما القدرة على تحويل سهامه إلى "غارودا-فانا"، وبالمثل، تفصل نفسها إلى "غارودا"، رعب ساربا ومدمره.

تقول بعض الأساطير إن غارودا من نسل كاسيابا وديتي. وضعت هذه السيدة الوفيرة بيضة، تنبأ البعض أنها ستحفظ مُخلّصها من بلاءٍ عظيم. بعد خمسمائة عام، انبثق غارودا من البيضة، وطار إلى مسكن إندرا، وأطفأ النار التي أحاطت بها، وهزم حراسها، الديفاتاس، وحمل الأمريتا (الرحيق) الذي مكّنه من تحرير أمه الأسيرة.

بضع قطرات من هذا المشروب الخالد تسقط على نوع من العشب يُسمى "كوسا"، فيُصبح مُقدّسًا أبديًا؛ ولعقته الأفاعي بشراهة حتى مزّقت ألسنتها بالعشب الحادّ حتى بقيت متشعبة منذ ذلك الحين؛ لكن نعمة الخلود ضمنت لها بتناولها هذا السائل الخالد. ولا يزال سبب تشعب ألسنة الأفاعي، في حكايات الهند، يُعزى شعبيًا إلى الجشع المذكور أعلاه؛ وربما يكون خلودهم المزعوم قد نشأ في بعض هذه القصص؛ فجزء صغير من الأمريتا، كما في حالة راهو، من شأنه أن يضمن لهم هذه النعمة.

في جميع اللغات الأسطورية، يُعد الثعبان رمزًا للخلود: فحياته التي لا تنتهي شكله عند إدخال ذيله في فمه، والتجديد السنوي لجلده وحيويته، يرمزان إلى استمرار الشباب والخلود؛ وربما ساهمت خصائصه الطبية أو المُحافظة على الحياة المزعومة في التكريم الأسطوري لقبيلة الثعابين. في الأساطير الهندوسية، للثعابين وجود وأهمية عالمية؛ فهي، بشكل أو بآخر، تكثر في جميع الاتجاهات؛ وتسود حالة مماثلة في اليونان ومصر. يعزو المؤلفون البارعون والمثقفون هذه العالمية لشكل الثعبان إلى الانتشار المبكر والمنتشر للخطيئة، والتي، بهذا الشكل المتطابق، كما يقولون لنا، وكما نعلم جميعًا، قديمة قدم أيام جدتنا الكبرى: وكذلك عمرها، عندما كانت هناك امرأة واحدة فقط؛ انتشارها، الآن، هناك الكثير، وهذا ليس مجالًا للنقاش. لو تتبع هؤلاء الكُتّاب استعارات الخطيئة والموت ونهاية إمبراطوريتهم، لربما اكتشفوا إشاراتٍ أخرى إلى التدبير المسيحي في تقاليد الهندوس أكثر مما نُشر حتى الآن - فكريشنا يسحق نموذج شيفا، لكنه لا يُدمره، وهو ما نوقش كثيرًا. غارودا هو أيضًا المثل الأعلى، ولكنه ليس المدمر الكامل للثعابين، لأنه نجا منها، هي ونموذجها الأصلي، في إشارة إلى المخلوقات، أبديون. إن حالته المستمرة والمقدرة في الحرب مع الثعابين، وهو شكلٌ يتخذه في الغالب أعداء التجسيدات الفاضلة أو أبطال الهندوس المُؤلهين، هو استعارة مستمرة للصراعات بين الرذيلة والفضيلة المُجسّدة بلا حدود. يظهر غارودا أخيرًا كمساعد لجميع الجهود الفاضلة

لإخضاع الخطيئة، باعتباره مركبة للحزب المعاقب والمنتصر، ويحمله على أجنحة الرياح إلى مناطق النهار الأبدي.

## الفصل الحادي عشر. معرض السيد بولوك للأشياء التي تُصوّر عبادة الثعبان

قبل ما يزيد عن ستين عامًا، افتُتح في القاعة المصرية بمتحف بيكاديللي ما وُصف بأنه "معرض فريد يُدعى المكسيك القديمة؛ جُمع في الموقع عام ١٨٢٣، بمساعدة الحكومة المكسيكية، من قِبل دبليو. بولوك، وزميل الجمعية الملكية لعلم الآثار، وغيرهم". يُظهر الرسم التوضيحي المرفق بوصف منشور لهذه المجموعة أنها تضمنت نسخًا طبق الأصل لبعضٍ من أبرز آلهة الثعابين الموجودة في معابد الأجزاء الغربية من أمريكا، وسيُثير المقتطف التالي اهتمام قرائنا. يبدو أن الأفعى الجرسية كانت أكثر الكائنات شيوعًا في العبادة والتبجيل والخوف؛ بل إنها توجد بطريقة ما مقترنة مع كل الأفاعي الأخرى تقريبًا، ولا تزال موجودة في العديد من قرى الهنود الحمر. ولا تزال في تيزكوكو، في حالة ممتازة حتى الوقت الحاضر.

يمكن العثور على شظايا مكسورة في واجهات منازل المكسيك في عدة أماكن؛ الرأس الكبير الموضوع على يسار حجر القربان مصبوب من حجر في زاوية المبنى الفاخر المستخدم لمكتب اليانصيب الحكومي، ومكشوف على الشارع. لا بد أنه كان ينتمي إلى صنم لا يقل طوله عن سبعين قدمًا، ربما في المعبد الكبير، وقد كُسر ودُفن عند الفتح. وهي عادةً ما تكون ملفوفة، مع ذيل أو خشخشة على ظهرها، لكنها تختلف في حجمها وموقعها. أفضل ما عُرف وجوده، اكتشفته في الجزء المهجور من دير الدومينيكان مقابل قصر محاكم التفتيش. إنها ملتفة في وضعية منتصبة منزعجة، وفكوكها ممدودة، وهي في طور التهام أنثى أنيقة، تظهر في فم الزاحف الضخم، مسحوقة وممزقة، وهي تفصيلة مقززة لا يمكن وصفها.

"بالانتقال إلى رسالة من كورتيس إلى تشارلز الخامس، كما أوردها هومبولت، نقرأ: "من الساحة، توجهنا إلى المعبد الكبير، ولكن قبل أن ندخله، تجولنا عبر عدد من الساحات الكبيرة، أصغرها بدا لي أنه يحتوي على مساحة أكبر من الساحة الكبيرة في سالامانكا، مع سور مزدوج مبني من الجير والحجر، و103
الساحات مرصوفة بحجر أبيض كبير مقطوع ونظيف للغاية؛ أو، حيث لم تكن مرصوفة، كانت مطلية ومصقولة. عندما اقتربنا من بوابة المعبد الكبير، الذي كان الصعود إليه بمئة وأربع عشرة درجة، وقبل أن نصعد إحداها، أرسل مونتيزوما إلينا ستة كهنة واثنين من نبلائه ليحملوا كورتيس، كما فعلوا بملكهم، الذي رفض ذلك بأدب. عندما صعدنا إلى قمة المعبد، لاحظنا على المنصة، ونحن نمر، الحجر الكبير الذي وُضعت عليه الضحايا المراد التضحية بهم. كان هناك تمثال ضخم يشبه التنين، وقد سُفكت دماء كثيرة طازجة. ثم توجه كورتيس إلى مونتيزوما، وطلب منه أن يُريه آلهته. بعد أن استشار مونتيزوما كهنته أولاً، قادنا إلى برج فيه نوع من الصالون. كان هناك مذبحان مزخرفان للغاية، بأخشاب مشغولة ببذخ على السطح، وفوق المذابح تماثيل عملاقة تشبه رجالاً بدينين للغاية. كان على اليمين هويتزيلوبوتشتلي، إله الحرب لديهم، بوجهٍ كبيرٍ وعينينٍ مخيفتين. كان هذا التمثال مغطىً بالكامل بالذهب والجواهر، وجسده مقيدٌ بثعابين ذهبية، يحمل في يده اليمنى قوسًا، وفي يده اليسرى حزمةً من السهام. أما التمثال الصغير الذي كان يقف بجانبه، فكان يمثل وصيفه، ويحمل رمحًا وهدفًا مزخرفين ببذخٍ بالذهب والجواهر. كان التمثال الكبير يلف عنقه أشكال رؤوس بشرية وقلوب مصنوعة من الذهب الخالص والفضة، مرصعة بأحجار كريمة زرقاء اللون. أمام التمثال، كانت هناك مقلاة بخور، عليها ثلاثة قلوب بشرية مشتعلة، ممزوجة بالكوبال. كانت تلك الشقة بأكملها، جدرانها وأرضيتها، ملطخة بدماء بشرية بكمياتٍ كبيرةٍ تُصدر رائحةً كريهة. على اليسار، كان التمثال الكبير الآخر، بوجهٍ يشبه وجه الدب، وعينان كبيرتان لامعتان من المادة المصقولة التي

تُصنع منها مرايا. كان جسد هذا الصنم مُرصّعًا بالجواهر. قيل إن هذين الإلهين كانا شقيقين؛ وكان اسم الأخير تيزكاتيبوكا، وكان إله العوالم الجهنمية. كان، وفقًا لمعتقداتهم، يترأس أرواح البشر. كان جسده مُغطّى بتماثيل تُمثّل شياطين صغيرة ذات ذيول ثعابين، وكانت جدران وأرصفة هذا المعبد مُلطخة بالدماء لدرجة أن رائحتها كانت كريهة أكثر من جميع مسالخ قشتالة.

وُضعت أمامه قرابين من خمسة قلوب بشرية. في قمة المعبد، وفي تجويف ذي خشب مُزخرف بإتقان، رأينا تمثالًا نصفه بشري ونصفه الآخر يُشبه تمساحًا، مُرصّعًا بالجواهر، ومُغطى جزئيًا بعباءة. قيل إن هذا الصنم

104

يحتوي على بذرة وأصل جميع المخلوقات، وكان إله الحصاد والثمار. كانت الجدران والمذابح ملطخة بالبقع مثل البقية، وكانت مسيئة للغاية لدرجة أننا اعتقدنا أننا لن نتمكن من الخروج قريبًا كفى.

"في هذا المكان، كان لديهم طبل ضخم للغاية، رأسه مصنوع من جلود ثعابين ضخمة. كان هذا الجهاز، عند ضربه، يُصدر صوتًا يُسمع على بُعد فرسخين، وكان مُحزنًا لدرجة أنه استحق أن يُسمى موسيقى العوالم الجهنمية؛ ومع أصوات أبواقهم وأبواقهم المروعة، وسكاكينهم الضخمة للتضحية، وضحاياهم من البشر، ومذابحهم المرشوشة بالدماء، كرّستهم وكل شرورهم لانتقام الله، وظننتُ أنه لن يأتي الوقت الذي سأهرب فيه من مشهد المجازر هذا، والروائح الكريهة، والمناظر الأكثر إثارة للاشمئزاز".

"في موقع الكنيسة، التي تُدعى القديس ياغو إل تالتيلولكو، كان هناك معبد، وقد لاحظنا بالفعل أنه كان مُحاطًا بأفنية واسعة كساحة سالامانكا. على بُعدٍ قصيرٍ منه، كان هناك برجٌ، جحيمٌ حقيقيٌّ أو مسكنٌ للشياطين، بفمٍ يُشبه فم وحشٍ هائل، مفتوحٌ على مصراعيه، مُستعدٌّ كما لو كان يلتهم من يدخله. عند الباب، كانت هناك أصنامٌ مُرعبة؛ كان بجانبه مكانٌ للتضحية، وفي داخله غلاياتٌ وأوانيٌّ مملوءةٌ بالماء لطهي لحوم الضحايا التي كان الكهنة يأكلونها. كانت الأصنام أشبه بثعابين وشياطين، وأمامها طاولاتٌ وسكاكينٌ للتضحية، وكان المكان مُغطىً بالدماء التي تُسفك في تلك المناسبات. كان الأثاث يُشبه أثاث كشك جزار، ولم أُسمِّ هذا المبنى الملعون قط سوى الجحيم. بعد أن مررنا به، رأينا أكوامًا ضخمةً من الخشب، وخزانًا للمياه يُزوَّد بأنبوبٍ من القناة الكبرى؛ وعبرنا فناءً وصلنا إلى معبدٍ آخر، كان يضم مقابر النبلاء المكسيكيين، وكان مُلطخًا بالسخام والدماء. بجانب هذا كان هناك تمثال آخر مليء بالهياكل العظمية وأكوام العظام، كل منها مُنفصل، لكن مُرتّب بانتظام. في كل معبد كانت هناك أصنام، ولكل منها كهنة خاصون، يرتدون ثيابًا سوداء طويلة، وشعرهم الطويل مُجعّد، وآذانهم مُمزّقة تكريمًا لآلهتهم.

ثم يشرع السيد بولوك في وصف قالب لصنم إلهة الحرب العظيم، الذي أحضره معه إلى إنجلترا.

105

"هذا الصنم الوحشي، الذي كانت تُقدّم أمامه آلاف الضحايا البشرية سنويًا على المذبح، بقاعدته التي يبلغ ارتفاعها حوالي اثني عشر قدمًا وعرضها أربعة أقدام، منحوت من قطعة واحدة صلبة من البازلت الرمادي. شكله جزئيًا بشري، والباقي مُكوّن من أفاعي جرسية ونمر. الرأس، العريض للغاية، يبدو كرأس أفعى

جرسية متحدة، وأنيابها تتدلى من فمها، حيث تُفرك قلوب الضحايا التعساء التي لا تزال تخفق بشدة كعمل من أروع أعمال القربان. الجسم عبارة عن هيكل بشري مشوه، ومكان الذراعين، المُزود بروؤس أفعى جرسية، موضوع على قواعد مربعة ومتصل بزخارف مهدبة. حول الخصر حزام، كان مغطى في الأصل بالذهب، وتحته، يمتد تقريبًا إلى الأرض ويغطي جزئيًا أقدامه المشقوقة المشوهة، ستارة مكونة بالكامل من أفعى جرسية مُكللة تُسميها الأمم "كوهواتليكويي" أو ثياب الثعابين، على كل جانب منها نهايات مجنحة لريش النسر. بين قدميه، نازلة من الجسد، أسندت أفعى أخرى مُكَلَّلة الرأس رأسها على الأرض، وتركيبة هذا الإله بأكملها مُلائمة تمامًا للغرض الجهنمي الذي استُخدم من أجله، والذي تُناسبها تمامًا الحُلي الشخصية. من رقبته، الممتدة فوق صدره المُشوّه، عُقد مُكوّن من أيادٍ بشرية وقلوب وجماجم - رموز تُناسب الطقوس الدموية التي تُؤدى يوميًا تكريمًا له. يُذكرنا رأس الموت وأياديه المشوهة، التي تُحيط أربع منها بصدر الإلهة، بتضحيات تيوكواوكوات المروعة، التي كانت تُحتفل بها في القرن الخامس عشر بعد ثلاثة عشر يومًا من الانقلاب الصيفي، تكريمًا لإله الحرب ورفيقته تيوياميكوي. تتناوب الأيدي المشوهة مع شكل بعض المزهريات التي كان يُحرق فيها البخور. كانت تُسمى هذه المزهريات توبكسيكالي، وهي أكياس على شكل كالاباش. نُحت هذا الصنم من كل جانب، حتى أسفله حيث كان يُمثل ميكتلانتيوتشتلي، سيد مكان الموتى؛ ولا شك في أنه كان يُدعم في الهواء بواسطة عمودين، ترتكز عليهما الذراعان. ووفقًا لهذا الترتيب الغريب، كان رأس الصنم يُرفع على الأرجح خمسة أو ستة أمتار فوق رصيف المعبد، بحيث كان الكهنة يجرون جثثهم التعيسة جعل الضحايا يمرون إلى المذبح تحت تمثال ميكتلانتيوتشتلي. نقل نائب ملك المكسيك هذا النصب التذكاري إلى الجامعة التي اعتبرها المكان الأنسب لحفظ إحدى أغرب بقايا العصور القديمة الأمريكية. لم يرغب أساتذة الجامعة، وهم رهبان من رهبنة القديس دومينيك، في كشف هذا الصنم أمام الشاب المكسيكي، فأمروا بإعادة دفنه في أحد ممرات الكلية. لكن السيد هومبولت كان قد نُبش القبر بناءً على طلب أسقف مونتيري.

"من النماذج الغريبة للغاية للنحت المكسيكي حجرٌ شديد الصلابة يُشبه الهورنشتاين، وهو نوعٌ خشن من اليشم، وهو نوعٌ من التلك المضغوط، ذو صنعةٍ مُتقنةٍ للغاية، وهو تمثالٌ نصفيٌ لكاهن، أو ربما لصنمٍ يُمثل الشمس. يُتوّج الرأس بغطاءٍ عالٍ على شكل تاجٍ، مُزينٍ بالجواهر والريش، وله أقراطٌ طويلةٌ مُتدلية. اليدان مرفوعتان، تحمل اليمنى شيئًا يُشبه هراوةً مُعقودة، بينما تُمسك اليسرى بباقةٍ من الزهور تتدلى من الرأس؛ جميع الأجزاء الأخرى مُغطاةٌ بقشورٍ وخشخشاتٍ من الزواحف القاتلة".

لقد بلغنا الآن حدودنا المُحددة، ولم نعد قادرين على إضافة سوى القليل إلى ما قُدّم بالفعل والذي يُظهر الانتشار الواسع لهذا الشكل الفريد من العبادة.

"لطالما عبّر الناس عن استغرابهم من إمكانية أن يصبح مخلوقٌ بهذا القدر من السوء موضع عبادة، ولكن هذا ما كان عليه الحال، ولا يبدو أن أي عصر أو بلد كان غريبًا عليه.

في وقت مبكر جدًا من التاريخ، بدأ البشر بعبادة ثعبان، ذلك الثعبان النحاسي من سفر الخروج، الذي دمّره حزقيا بسبب عبادة الأصنام التي قادت الناس إليها. ولكن إذا أُزيل هذا الكائن، فإن الأمل في توقف العبادة سيكون باطلًا، لأنها بدأت بين الآشوريين والكلدانيين والفينيقيين والمصريين، وانتشرت إلى اليونان وإستونيا

وفنلندا وإيطاليا وبلاد فارس وهندوستان وسيلان والصين واليابان وبورما وجاوا وشبه الجزيرة العربية وسوريا وإثيوبيا وبريطانيا والمكسيك وبيرو.

كان امتدادها واسعًا كامتداد العالم نفسه، وكان تأثيرها على عقول من وقعوا في نطاقها هائلًا يفوق الوصف. فليدرس القارئ الفضولي، الذي يرغب في معرفة المزيد، والذي يتعرف على الأشكال المتعددة التي صُوِّر بها هذا الرمز، أعمالَ كتّاب مثل كينغسفورد ومونتفوكون، بلوحاتهما العديدة والمتقنة الصنع، وسيتأمل بدهشة في السحر الفريد الذي يبدو أن هذا الزاحف البغيض قد مارسه على العقل البشري.

يُقال، كما نعلم، إنه لسحر الضحية التي يوشك على اصطيادها فريسة، لدرجة أن هذا المخلوق التعيس يُحرم من كل قوة للمقاومة، وهو سحر لا يقل سطوة، يبدو أنه شلّ العقل البشري ودفعه، لسبب أو لآخر، إلى اتخاذ هذا الزاحف البغيض موضوعًا للعبادة. ومع ذلك، فقد انكسر السحر الآن، ولم يبقَ إلا القليل مما كان يومًا ما عالميًا، وراء التلال الترابية حيث كانت معابده والمنحوتات شبه المهترئة التي جُمعت في متاحف الدول المتحضرة.